علاء خالد

مسار الأزرق الحزين

«كل ما هو غير مرئي، ونأخذه كشيء مسلم به في حياتنا العادية، ولا يثير حتى انتباهنا، كالوقت أو الزمن أو رائحة البرتقال، كان هنا في غرفة العناية المركزة هذه له ثقل وحضور ماديان، ربما لاتساع الوعي بالزمن حتى تتلمس ماديته، ماديته هو، وليس عبوره وإحساسك بالفناء. كأنك في سباق لا يوجد به خط نهاية...»

مسار الأزرق الحزين

علاء خالد

مسار الأزرق الحزين

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع: www.facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © علاء خالد ٢٠١٥

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

خالد، علاء.

مسار الأزرق الحزين/علاء خالد - القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.

تدمك: 9789776467316

١-خالد، علاء - المذكرات

أ-العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٢٢٧/٢٠١٥

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

الفهرس

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

٨

٩

١٠

١١

١٢

١٣

١٤

١٥

عن علاء خالد

١

فتحت عينيَّ، بعد أن زال تأثير البنج، بعد العملية الثانية التي أنقذت حياتي. أحسست بعطش صحراوي شديد، تلمست بعض الآلام البعيدة التي كانت تتحرك حول الشق الطولي للجرح الذي غطى منطقة البطن. وجدت أحد الممرضين، عبد العظيم، وهو يقوم بمسح جسدي بالماء، يعصر الفوطة في الإناء، ثم يعيد ملأها بالماء المثلج، ويفرغها على جسدي. كان الماء يأخذ دورة كاملة بين جسدي والإناء ويد عبد العظيم. لحظات حتى استوعبت المشهد وما يحدث من حولي. شملتني قشعريرة امتنان، جعلت الدموع تتجمع في جانبَي عينيَّ. شعرت بأني أحد جرحى المعارك القديمة، وهناك من يقوم بتطبيب جروحي وإزالة خيوط ودوائر الدماء المتجلطة، تلك المعارك التي يتقاتل فيها الجيشان وجهًا لوجه، وتلمع فيها نصال السيوف. تراءى أمام عينيَّ شبح تلك السيدة التي أنزلت السيد المسيح من فوق الصليب، وتلك التي غسلت قدميه. صورة المعركة وصورة المسيح كانتا تحتلان ذاكرتي. لا أعرف، هل كانت الذاكرة ترشِّح في ذلك الوقت صورة رمزية لما سيحدث في المستقبل، وأصعد للسماء كما صعد المسيح؟ استيقظت بعد معركة مع الموت، أو مع الحياة، سيان،

كلاهما له نصل في غاية الرهافة وغاية الحدة.

المرة الأولى التي رأيت فيها عبد العظيم كانت بساعات قليلة قبل العملية الثانية، عندما تم نقلي لغرفة الأشعة الباردة في الدور الأرضي للمستشفى. هناك حيث يرقد هذا التابوت المعدني المسمى بجهاز أشعة الرنين المغناطيسي، بعد أن فشلت طبيبة أشعة السونار، بعد العملية الأولى، في اكتشاف سبب هذا الانتفاخ غير الطبيعي في البطن. دُفنت لمدة ساعة، من أثقل ساعات حياتي، داخل هذا الأنبوب، بنفس مكتوم أغلب الوقت، وصوت ورشة آلات مزعجة تخرط تمثالاً لهذا المرض الكامن بداخلي. خلال تلك الساعة كانت الأخشاب الطافية لذاكرتي تمر أمام عينيَّ كعربات قطار مسرع، من الصعب أن تمسك بإحداها وتتفحصها. لم يكن هناك أي رابط بين كل هذه الأخشاب الطافية والذكريات. لقد تفككت السفينة عن آخرها، واحتفظت الذاكرة، فقط، بهدفها في الإبحار. كان عبد العظيم يسير بجانب الترولي، يحمل أنبوب الأكسجين، ويبتسم لي. صارت العلاقة مع عبد العظيم بها نوع من الاحترام والود الحقيقيين طوال فترة إقامتي في العناية المركزة، ولم تهتز يومًا. كان يشعر بمسؤوليته عني، ويشعرني بهذا، ويخفي أي تذمر من طلباتي أو ثقلها على نفسه تحت سطح وجهه المدرب الهادئ السمين. مرات عديدة كنت أغفو سهوًا، وعندما أفتح عينيَّ أجده أمامي ينظر لي بعمق. كانوا يخافون عليَّ عندما تطول غفوتي، ربما يظنون أنني قد مت، أو ذهبت في إغماءة، فأجد تلك الأصابع التي تهز كتفي، أو تلك الجلبة المتعمدة حول سريري. كان الموت هو دائرة النور التي يرونها هم فقط فوق رأسي بينما أنا لا أراها بوضوح. كنت أصطنع جلبة

مشابهة مع سرير غفوات أبي وأمي في سنواتهما الأخيرة. لقد أصبحت متقلدًا مكان هذه الغفوة المربكة، ومن خلالها أكتشف تلك المشاعر التي كانت تحيط بي. دنيا، ممرضتي في الغرفة التي حللت بها لأسبوع كامل بعد خروجي من العناية المركزة، كانت تطيل زمن قياس النبض، وتختلق الأعذار لتكون بجانبي، وعندما عرفتْ بأني كاتب أصرت أن تقرأ لي شيئًا. كنت أصحب معي في المستشفى كتابي ((وجوه سكندرية))، أعطيتها إياه. كانت كل يوم تتبادل مع زميلها القراءة أثناء النوبتجية. كنت أشعر برعاية مختلفة أثناء قراءتهما للكتاب وبعده. رعاية بها نكهة القداسة لهذا الكاتب الملقى أمامهما بلا حول ولا قوة. ربما كانت تتجسد في عيونهما تلك المفارقة المُرة بين الضعف الذي أنا عليه، وبين عوالم الكتاب الذي يحمل اسمي على غلافه وأتجول داخله بخطًى لاهثة عبر شوارع الإسكندرية وباراتها ومقاهيها وتواريخها وأرصفتها. كانت دنيا متأثرة للغاية عند مغادرتي المستشفى. جاءت في اليوم السابق لمغادرتي لتسلم عليَّ ولترد لي الكتاب. تمنيت ألَّا ترده لي، وأصررت ألَّا أسترده. نظرنا إلى بعضنا نظرة طويلة هادئة بها امتنان متبادل. فربما منحتُها بشفائي أملاً في صدق مشاعرها التي كانت تخلطها بالدواء والابتسامة، أو بأي فعل بسيط كانت تقوم به نحوي. يوم خروجي سلمت يداً بيد على كل من قام على تمريضي خلال تلك الفترة الحرجة. كنت أدس في يد كل واحد فيهم بحيرة صافية من دموع الامتنان. أثناء إقامتي في تلك الغرفة كتبت لي دنيا ورقة محملة بأمنيات الشفاء، وعلقتها على باب غرفتي من الخارج، حيث كان الأصدقاء يكتبون أمنياتهم لي في أوراق صغيرة ويتركونها هناك. ومنهم من كان يضع زهورًا مصنوعة من الورق أو زهورًا حقيقية. كنت أقوم ليلاً، بعد أن

تهدأ الحركة في أروقة المستشفى، أتحامل على نفسي، وأقف أمام حائط الأمنيات هذا لأقرأ حصيلة اليوم من الأمل. هذه المشاعر الخاصة كانت تعمق جذوري في المستشفى. أَأْتَلِفُ مع من حولي، حتى أواجه تلك البرودة المتصاعدة في جسمي، بتلك الشبكة من العلاقات الملتبسة. في لحظات محمومة، في ساعات الليل الطويلة، لم أجد سوى يد دنيا، وهي تضع لي الثلج على رأسي، أو تركب أنبوب المخدر. ذلك الفرع الأخضر من الشجر، شرفة الجار، الذي يعلق بي قبل السقوط. كنت أشعر بوجودي يتضاعف ويتناسخ ويحل في مستويات سفلية، أنحدر بقوة، حتى بدون شهقة الهبوط المفاجئ، كأنني في بئر الحلم. كانت اليد التي تمتد لي هي لحظة الاستيقاظ من كابوس الهاوية التي لا نهاية لها.

بينما طبيبة السونار الشابة، التي لا تتجاوز العقد الثالث، تقوم بوضع جهازها على بطني وتدور به كأنها تبحث عن جنين سيظهر على الشاشة، فوجئت بأن ثديها الصغير محشور في أنفي، كأنها تقوم بإرضاعه. لم أشعر بأي إثارة. أحياناً كانت جبهتي تصطدم بثديها، وهي من الملامسات المسموح بها في فضاء المستشفيات، ولا يخجل منها أي طرف من أطراف هذا الفضاء، فكل الأعضاء مكشوفة، ومسحوب منها الرغبة، وسط رفرفة أجنحة الموت التي تخلِّف برودة في المكان، توازي برودة أجهزة التكييف؛ تجمد سوائل الشهوة وتحفظها لسنوات قادمة. ماذا لو قضمت قضمة من هذا الثدي الصغير، ثم تفَلْتُ تلك الأنسجة المُرة كتفاحة غير ناضجة تؤكل في غير أوانها؟! الأعضاء في المستشفى تخطت الخطوط الحمراء، رغمًا عنها، في منطقة تقبع خلف

خطوط العدو. تحت تأثير الوهن تشعر بأن أعضاءك غريبة عنك ليست هي التي تعرفها. المرض يسحب من الأعضاء جنسيتها. على أبواب المستشفى أو العناية المركزة يخلع المريض الذَّكَر علامات ذكورته، ليستردها عند خروجه مع ما يسترده من هواء وشبق وملكية الأصحاء. الأعضاء التي نستعملها أثناء هذه الإقامة أعضاء مؤقتة أو صناعية تقوم بالواجب للحفاظ على المظهر العام للجسم.

٢

شعرت بألم مبرح أسفل بطني، ناحية اليمين، ما دعاني لدخول المستشفى. عندها بدأت تتصاعد في نفسي ترجيعات قديمة بخصوص المرض، وكيف أنك تنتظر شيئاً سيقابلك ذات يوم في الطريق، يظل حولك يهيم إلى أن تسقط الريشة فوق رأسك، وتصبح أحد أقدارها الفائزة. في هذه الليلة سقطت الريشة فوق رأسي، وتوقعت الأسوأ. سواء حدث الأسوأ أو لم يحدث، فقد كنت بكلي داخل حيز وجوده، كأني أستفزه ليستيقظ ويمارس عليَّ سطوته ويحقق نبوءتي. كنت في هذا الوقت ضد نفسي أستثير فيها رمال الزوال. عندما فحصني طبيب أشعة السونار، قبل العملية الأولى، ظللت معلقاً أذنيَّ بين الطبيب وآخر يشرف على الأشعة لألتقط ذلك التعبير العملي الذي يدل على حضور هذا الأسوأ، ولكن التشخيص كان سلبيًّا: التهاب الزائدة الدودية، وعدة حصوات في المرارة، ويفضل أن تتم إزالتها مرة واحدة، كما أشار عليَّ الطبيب الجراح. كان الخوف واستثارة الخطر في نفسي أكبر بكثير من هذه الزائدة الصغيرة وآلامها، وأكبر من المرارة وحصواتها. ظل هناك فائض في التوجس وانتظار الأسوأ ماثلاً في فضاء نفسي لا يجد عملاً له. بعد إجراء الجراحة،

ووقوع الخطأ الذي أدى لإحداث ثقب في الأمعاء، تحولتُ إلى الحالة الحرجة بعد تسرب العصارة المَعدية من الأمعاء لتسعى في أنحاء الجسم تدمر صفاءه. لم أستغرَب الأسوأ في هذه المضاعفات المتتالية، كأني كنت أنتظر لقاء صديق، ولو اختلف قليلاً عما تخيلته. أدركت حينها أنني قابلت الأسوأ الحقيقي. لم أشعر بالخوف، فقد جهزت نفسي منذ القديم لهذه المقابلة الإكراهية. رسمت له شكلاً وصورة، وعلى الرغم من أنه جاء على صورة وشكل جديدين، إلا أن المشترك هو رجَّة الخطر الحقيقية والتي لم أجد لها معادلاً في خيالي. لم أعمل حساباً لهذه الاهتزازات العنيفة التي تسللت لطبقات من الوجود والأحاسيس لم أعلم بوجودها بداخلي. يبدو أنه كان من المهم حدوث هذا الأسوأ ليسحب معه هذه المخاوف التي تسلقت الجدار العالي للوهم القديم. لقد اقتص مني الوهم الممتد في جذور عائلتنا، فقد كانت أمي تتوقع دوماً إصابتها بالسرطان عند أقل بادرة من التهاب الحلق، أو وجع في البطن، أو تحسسها أي بروز في الثدي. كانت هي أيضاً تتوقع الأسوأ، وجئت أنا لأكمل المسيرة. الأسوأ في حالة أمي تحوَّل إلى ((أسوأ صوفي))، من طول عشرته وعدم فاعليته وتحققه. لقد تم إخصاء هذا الأسوأ، لأنها كانت أيضاً مثلي تحب الحياة ولها عناصر مقاومة هائلة بدون أن تدري. ما يفرق بيني وبينها أنني أدخلت هذا الأسوأ في مكان التحقق، وفي دائرة الحقيقة، أما ((أسوأ)) أمي فظل هاجساً يهدد صفاء سريرتها واستمتاعها بالحياة. فكان النزال بيني وبينه قويًّا وعنيفاً وليس ابن هذه اللحظة فقط. لم يدرك الطبيب هذا النزال، كان يتعجب من سرعة انهيار جسمي، وانخفاض قراءات حيوية كثيرة، ككرات الدم البيضاء ونسبة البروتين

في الدم، لم يعرف أنه نزال تاريخي من نوع آخر، وليس من مضاعفات خطأ العملية وأعراضه فقط.

كل من بالمستشفى من مرضى وزوار وعاملين، جميعهم كانوا يحملون هذا الاستبطان المرجح للموت وأشكاله وعاداته التي يحبها، والأشكال التي يظهر فيها، والأشياء التي يختفي بداخلها. حتى الشفاء يخلف وراءه لحظات اتحاده بالموت ثم انفصاله عنه والسير في طريق مختلف. لحظات الاتحاد تؤبنها ذاكرة المستشفيات. تترتب أشياء المستشفى، وهندسته، وممراته، وإضاءاته، وطوابقه، تحت هذه المظلة الوارفة للموت. السرير، الملاءة، ثوب العناية المركزة، الأطعمة، اللامبالاة، الأجساد العارية، مقابض الأبواب الباردة، وبرتقالات الغداء، هي حروف هذه اللغة الجديدة، وكلها ممسوسة بلغة الموت. هذا الزائر الأبدي الذي يخرج من المستشفى يتحسس جسمه ليتأكد من كونه حيًّا، ويتنفس بقوة كأنه يزيح هواء الموت الذي ملأ رئتيه طوال ساعات زيارته. كلنا نتداول هذه اللغة ونعرف هذا الشبح الذي يرقد داخلها ويحركها. أي مكان أو زاوية أو أداة، بداية من السرير، لأدوات الطعام والأطباق وأجهزة التنفس وقياس النبض، وشاشات رسم القلب، حتى أصغر صنبور تتدفق منه المياه، كلها مسها شخص ميت، أو مست جسده، ولم يعد موجوداً. حتى وجوه من يعملون في المستشفى مسها هذا الشخص الميت، وسحب منها جزءاً من حيويتها، أو أضاف لها يباسًا وسكون عالمه الجديد. كل شيء ينظر له الميت يكتسب منه صفته. لا تثق كثيراً في اليد الحانية أو العين المشعة بالأمل من طرف الأطباء أو الممرضات، أو من جامعي البول في

الصباح، أو من ماسحي الأرض، لأنها أيادٍ وعيون استعملت وتداولت ونظرت في عين الموت وأصابتها عدواه ولا مبالاته. لقد مات جزء منهم رغماً عنهم. هذا الجزء هو الذي يبتسم ويربت على كتفك ليشجعك. لقد حدث التحول في هدوء نادر. بجانب غيبوبة جاري، وبطنه المنتفخ، كانوا يتحدثون عن غلاء الأسعار وخلافاتهم الشخصية التافهة. لم يعد الموت يهزهم، لأنه صار جزءاً منهم، لا يشعرون به، كالجلد الميت. كلنا كان لنا نصيب من هذه الفطيرة التي يخبزها لموت طازجة كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة، كل ثانية. للمستشفيات رائحة خبز طازج. كل لحظة فَوَقَان واستعادة لمركز الحياة المحتل بداخلي، هي نفسها اللحظة التي أشعر فيها بالموت خلفي تماماً يتتبع خطوات أملي، وتحريري لأرض البقاء. هذا الغدر المتوقع في كل لحظة، لأن الأمل هو مكانه المفضل للسكن. كان الموت كغبار تراب بركاني يهبط كل يوم فجراً ليأخذ أشكال ومقاسات تلك الأجسام المستلقية، والتي سيخلدها قريباً في متحفه الكوني، ((متحف مدام توسو المستشفيات)). يُجري بروفة أولى لهذا الجسد القادم. تشعر بأن هناك من يأخذ مقاسك، تلك المقابض النحاسية الباردة التي تخض جسدك، وخزات غير مقصودة، آثار دماء متجلطة. كل وجبة كانت وجبة وداع.

أسعدني وصفي بالمقاتل من قِبل أصدقائي، وبأني لا أستسلم بسهولة لأي وضع، وأيًّا كان من يقف فِي الناحية الأخرى في الحلبة. لا تجزع أي روح أمام الموت وإنما تجزع من صوره التقليدية. الموت الحق أكثر حداثة وخفة، غير مقيد بتقاليد بالية تثقل كاهله. لا تنفي هذه

الخفة، وهذه الحداثة، أصالته، بصفته مرجعاً لا تخرج منه الأفكار، ولكنه يعكس وميض ضوء المرجع الأصلي، ألا وهو الحياة. الحياة والموت كالشمس والقمر، أحدهما يؤول ويغير مسار واتجاه ضوء الآخر، يسحبه للخلف، مثل نقطة البدء، بدلاً من الأمام. ربما للمرة الأولى أتفهم كلمة إرادة، إرادة الحياة، إرادة الموت. إرادة الحياة هي التي لا تقف ولا تقاتل الموت، حتى ولو بدا هذا ظاهريًّا. الموت أحد الأصدقاء الذين يربون هذه الإرادة ويصقلونها، والمسؤول عنها حتى في لحظات غيابه ونسيانه. يظل ينسج بهدوء لحمة وسَداة نسيج هذه الإرادة التي تصوغ الشخصية وتحميها في كل مواجهات الحياة: إرادة البقاء. تتجسد الإرادة في فعل قدرتها على حشد ذاكرة صاحبها أمام الزوال، ومدى استجابتها المتفهمة لهذا الانعطاف الحاد والمفاجئ. الزوال فكرة تتعدى الموت، وإن كان الموت أحد رموزه. الزوال لا صديق له. إنه صفر الوجود، وليس الموت. أما الزوال تنتفض حياتنا وتتلبسني قوة داخلية تعرف جيداً مسارها واتجاه حركتها. لأول مرة أشعر بجسمي يترنح مثل ملاكم مضروب بالضربة قبل القاضية، مجروحاً وغير محسوس به. تذكرت جسد ((أوزيريس))، الموزع في جميع أنحاء القطر، الذي يعيش في ذاكرتنا، ويحتل مكان أسطورة البعث بعد الموت، وهي إحدى الأساطير الشرقية المتفائلة في مقابل الأساطير العدمية لغرب ما بعد الحداثة التي تضع على خانة البعث في الخيال علامة ((X)). للمرة الأولى يدخل ((أوزيريس)) في جسمي، وفي لغتي. وللمرة الأولى أشعر بالعلاقة بيني وبين النيل والدلتا وجغرافية مصر. تحت دثار الموت بدأت أسطورة مصر تتجسد وتُظهر الحدود التي تجمِّع ولا تفرِّق. داخل هذا الحيز الجغرافي لا شيء

يموت، وإنما يعاد ويُبعث ويُنسخ ويعيش. هذا الامتداد، بل الإيغال في الزمن، صورة من صور إرادة الحياة، إرادة البقاء. هذه الثقافة لموروثة هي بعينها مكان النجاة، كما وجهتني ذاكرتي التلقائية، خصوصاً أمام تلك اللحظة القديمة كالموت. هذه الثقافة الموروثة والموت يعرفان بعضهما جيداً، وبينهما رموز مشتركة وحوار انقطع، وكل منَّا على حدة يكمله بطريقته. لقد كانت ذاكرتي في رحلة بحث عن جسد، أو رمز يطفو على سطحها. كأني في زمن قادم سأقابل هذا الجسد المنثور والمجروح لـ ((أوزيريس)) كموجة تعثر على قشة إيقاعها داخل مسار النهر الكبير. أجد دائماً في البر الغربي في الأقصر راحتي، وأستعيد هدوءاً وتسليماً برحلة الحياة، كأني أعيش في مقبرة وادي الموت، ولكن وسط الحياة! أصدق تماماً أن جسد ((أوزيريس)) عبر من هنا في رحلة التئام أوصاله. تؤرقني فكرة البعث، تؤرقني هذه السنوات الطويلة التي سأقضيها في انتظاره. هل ستمر عليَّ كلمحة بصر، وأستيقظ مرة واحدة لأجد مشهد النهاية قد رتب كله، وينتظر دخولنا إليه، كأننا كنَّا طوال حياتنا نقف وراء الكواليس؟ حشود البشر، والل‍ـه قريب منَّا، والعرق يصل لأعناقنا، نوم ثم نوم، ثم استيقاظ للأبد. يؤرقني هذا الأبد، لا أفهمه، ولكني أثق فيه. خيط من هذه الأبدية مربوط بذراعي كإشارات الكشافة. خوفي من ملل البعث وأوقاته الفارغة كان أكبر من خوفي من الموت في حد ذاته، وربما هو الذي صاغ تلك العلاقة السيئة مع الموت، ذلك الجسر الخشبي الذي يفضي إلى رواق البعث المضيء.

وأنا صغير لم تكن معلوماتي كافية عن الحياة الأخرى، حياة ما بعد

الموت. نعم هناك جنة ونار، ولكن قبل البعث وقبل الحساب أين سنكون. كنت أتصور بخيال الطفل أني سأظل هكذا ممدداً على ظهري سنوات وسنوات، بل ملايين من السنوات الضوئية والشتاءات الممطرة، منتظراً يوم البعث. كنت أجزع من هذا التصور، إلى أن عرفت أن . فرحت جدًّا بهذا، أيًّا كان ما سيحدث في هذه الحياة الوسيطة، ولكنها أيضاً حياة وليست موتاً خالصاً. وأنا أتذكر خيالي الطفولي هذا، أشعر بمدى تعلقي بالحياة، لدرجة الإيمان بأن للحياة صوراً متبدلة والموت أحد هذه الصور، أما العدم فلا وجود له. الموت بالتأكيد ليس العدم.

لا أتخيل الموت انفصالاً، ولكنه طريقة أخرى للطيران، وإلا كيف أفسر حضور الموتى في أحلامنا في حالة شفافة وتكاد لا تكون لهم كتلة، وينصرفون لأي طارئ بسيط يظهر في الحلم؟ ولكن في الوقت نفسه لا أنكر هيئة الثقة والقوة التي يظهرون بها.

أسير في الشوارع، أرقب حركات المسنين: المشية البطيئة، الالتفاتات المتأخرة، الوهن في الحركة، والحيرة وسط الزحام، أرقب هذا الكون الخاص الذي يحميهم. شيء جوهري في هذه السن المتأخرة ينسج شبكة من الحماية حولهم. لم أشعر يوماً بأني سأبلغ هذا العمر. كنت أتخيل دوماً أنني سأودع الحياة قبل أن أخطو وأطرق باب هذا الكون الخاص. ملاك يرفرف على هذا الكون الخاص، يمنح كل حركة من حركاتهم بُعداً رابعاً يجسد شكلاً جديداً للحركة في هواء الزمن الكثيف، تلك الرعشة الطفيفة المحملة بالمعنى، والتي تحلق فوق الحركات أشعر بوخزة في قلبي، لا أعرف سبباً محدداً لها. تنتابني عدة

مشاعر جملة واحدة: التعاطف، والخوف، والشفقة، والخشوع أمام هذا العمر الذي أكسب أجسادهم وحركاتهم شفافية ورهافة تضارع شفافية الموت ورهافته. ويلح عليَّ تساؤل دائم: هل سيصلون إلى بيوتهم سالمين، دون التعرض لمفاجآت الطريق؟ في مرة من المرات أثناء عودتي من القاهرة بالقطار ليلاً، كانت هناك سيدة مسنة تحمل في إحدى يديها شنطة صغيرة، وفي اليد الأخرى عصا تتكئ عليها. نزلنا من القطار وتقدم إليها أكثر من واحد ليساعدها، ولكنها رفضت بأدب أن يساعدها أحد في نزول وصعود السلالم. كانت تسير ببطء، مما جعلنا جميعاً نسير خلفها لنؤمن خطواتها، وعندما سألتها إحدى السيدات:

- معاكِ حد يا حاجة ؟

أجابت بثقة:

- معايا ربنا.

تصدرت السيدة المسنة المسيرة، ونحن، ركاب القطار المتعاطفين معها، نسير خلفها في طابور طويل. تحول هذا العمر وهذا الجسد الواهن إلى قائد ومرشد، حتى وصلنا إلى باب الخروج واستقلت ((تاكسي)). فكرت في الوحدة التي تعيشها هذه السيدة، وشجرة الأمومة التي لم تثمر، البيت الخالي الذي ستذهب إليه ليلاً لتحضر عشاءها وتنام. ربما تكون كل خيالاتي التي نسجتها حول السيدة غير

حقيقية، ولكن بالتأكيد هناك وحدة تعيشها، تجعل سيدة في الثمانين لا ينتظرها أحد على محطة القطار ليلاً. يتحول الكبار في أي مكان يتواجدون به إلى نقطة جذب، تتحرك الحكايات من حولهم، لتصنع مجالاً روائيًّا يضاعف ويكثف هذا الزمن الكثيف الذي يتكئون على جدرانه، ليتكسبوا في النهاية خاصية النجوم، ولكن بلا غرور أو أنانية النجم. للكبار أيضاً سحرهم الخاص، تلك الحركات والإيماءات والكلمات القليلة والموحية، والتي تقطرت عبر هذه السنين الطويلة حتى وصلت إلى هذه الدرجة من الدقة والتأثير. هذا البطء الذي يميز الكبار، يصنع لهم عالماً مختلفاً داخل الشارع، أو في أي مكان يذهبون إليه. البطء وسط عالم متسارع يتحول إلى خصوصية لها معنًى ودلالة، هو لغة عالمهم الذي يحملونه معهم، هو الذي يطيل الزمن الذي نشاهدهم فيه، ويتحركون خلاله. السرعة ليست لها قيمة في عالم الكبار، فهم ليسوا في سابق مع أحد، ربما مع الماضي، الذي يأتي أيضاً صامتاً، كصور، كذكريات. الخوف من مرور الزمن يتلاشى مع الكبار، فقد تعدوا حاجزاً يتوقف عنده الزمن عن إشاعة الرعب في القلوب، ويتحول إلى فضاء بريء ممتد كزمن الطفولة. فالأطفال هم من لا يخافون الموت، لأنهم جزء من نسيجه الحي، لا يدركون المسافات كنقاط بين بداية ونهاية، فالبداية والنهاية متضمنتان داخل زمنهم الخالد. وليس غريباً أنه كلما أوغل الكبار في السن عادوا أطفالاً في سلوكهم، وفي حساسيتهم تجاه من حولهم. الكبار جوهرة مصقولة في كل بيت. هذا النقاء وهذه الشفافية التي تكتسبها الجوهرة. صارت أجسادهم تعكس وجوداً آخر، فالكبار جزء من عالم لا مرئي، أصبحوا شركاء فيه، ولحظات الازدهار والتحقق تكون في تلك

السنوات التي يصبحون فيها وسيطاً روحيًّا لهذا العالم اللامرئي. تجلس أمامهم فكأنك تقرأ بوضوح في كتاب مقدس. حتى التجاعيد تصبح كحروف ونقوش آتية من هذا العالم. تلك العروق الزرقاء التي ترى فيها مسار جريان الدماء، كأنَّ هناك ضوءاً ينبعث من الداخل، إلى هذه الدرجة تشف حياتهم وأجسادهم، لدرجة يتماهون فيها تماماً مع هذا العالم اللامرئي وأضوائه.

والآن بعد ما حدث، ربما أزحت حدود ورهبة الانتقال بين العالمين، اختصرت زمناً ثقيلاً من التصورات والأوهام. بعد محنتي الأخيرة كنت أنحدر على رمال ناعمة باتجاه المستقبل، مهدت تلك التجربة الصعبة الطريق لكي أحذف من قاموس عينيَّ المتجولتين في الشوارع كل الصور الحياتية للموت البطيء. يبدو أن سيطرتها على عينيَّ كانت تعني أني أنجذب رويداً رويداً داخل مجاله القوي، ويكون مصير الحركة التي تليها هو الانتقال من الصورة إلى الالتصاق بالرمز. بالتجربة أصبح الموت أحد الأصدقاء، بيننا مسافة، لا تتناسخ فيها أي صور عدا الصمت والاحترام. هذه المسافة القريبة لا تسمح بأي زيف أو وسيط. أخيراً هي العلاقة المباشرة التي لا يتوسطها رمز. تعاد تجربة الوجود قبل أن تتوسط اللغة بين الإنسان ومفردات الكون المحيط به. أشعر بفراغ، كأنَّ عضواً نفسيًّا قد تم انتزاعه أثناء العملية. ولكن هذا الفراغ النفسي ذابت فيه أي تخوفات من تقدم العمر. فَلْأَجْنِ ثمرة هذا العمر المتفتح، مقابل التقدم فيه والإيغال في سديمَه. ((سن الخمسين)) مرحلة تصفية الحسابات مع النفس، ومع الماضي، بدون قتال أو أي رغبة في القصاص. أخشى أن يكون قانون الحياة أضعف

من إرادتنا، وبدلاً من أن نكسره ليتسع لطموحاتنا وتجاربنا، يكسرنا حتى لا نفضح هشاشته! نضج النفس وعمرها الحساس يجعلانها تعرف أنها لم يعلمها أحد. حياتها كانت عبارة عن خلية عنقودية من التجارب التي لا تعرف إحداها الأخرى، إلا لحظة القبض عليها بواسطة الموت. ((سن الخمسين)) زمن حضور الموت في أخف صوره وشاعريته، كشريط السينما، اجتماع متعة الفرجة مع إحساس كونك أصبحت أحد أبطال هذا الفيلم. تنفصل عن نفسك كقشرة برتقال سميكة، رويداً رويداً حتى تظلم السينما تماماً، وتنبثق الثمرة من عمق الوجود، ولا يبقى من هذه الرحلة سوى هذا اللُّبِّ الذي لا يفني، والذي تكونت حوله مادة الجسم. ((الخمسون)) دورة مثل دورات الفصول، مثل أي نظام تكوَّن بفعل التكرار حتى أصبح له صفات مادية، ووجود يخصه، منفصل عن صاحبه. الهبة الأخيرة التي يجب أن تنفق على مجمل العمر القليل المتبقي، لأنها الموسم الأغزر للحصاد. مواسم برتقال الذات. عين في الحاضر، والأخرى مغروسة في المستقبل، في غير زمانها، في بساتين الموت الذي أصبحت تتسم رائحته. أتذكر أبي في الخمسين، كانت له حياة واضحة ومكتملة، ثلاثة أبناء أكبرهم في الثامنة عشرة، وزوجة، ووظيفة، وشاطئ نفسي هادئ. ربما أجلس الآن على هذا الشاطئ النفسي الهادئ، ولكن بمسار مختلف: بشجرة ليس بها ثمار غير حب الحياة، وبأمل أن هناك أشياء جديدة أنتظرها. هناك عدة مراحل عمرية ما زالت مدمجة بالخمسين، مشتبكة بها. ما زلت أعاين الطفولة والمراهقة والخفقان القاسي للقلب، ولكن بدون اندفاع، مع قناع من الحكمة وشحم الموت. تصبح الحياة مكثفة ومرور اليوم له معنًى. لا تريد أن تضيع

شيئاً بعد أن كنت ترهن حياتك كلها للضياع. يدخل الضياع والفقد في حياتك من باب خلفي: خوفك من أن تفقد حياتك بعد أن صار لها معنًى وأصبحت ندًّا لهذا الفراغ الذي يحوطنا ويرجِّع صدى أعمالنا.

لكل منا مراحل عمرية تعبر به أثناء حياته كالفصول، وربما كل مرحلة لها لون خاص بها، تتميز به عن المرحلة التي تليها أو تسبقها. أعتقد كذلك أنه ستأتي مرحلة تتجمع فيها كل الألوان، حتى تصبح مثل قوس قُزَح، ألوان وأطياف متعددة وبالغة الدقة والحساسية لخبرات ومواسم إثمار الذات والحياة. بالنسبة لي وحتى سن الخامسة والعشرين، كانت الحياة تسير في منحنًى واحد، بذور كثيرة وثمرات قليلة. بداية من عيد ميلادي الخامس والعشرين بدأت أؤرخ لتحولات، وبدأ العمر يتحول إلى شيء ملموس ومادي أخاف من التفريط فيه، كأني بدأت أنفق من مخزون يجب الحفاظ عليه. هناك رصيد لكل منا، يتغير حجمه من مرحلة عمرية إلى أخرى، وتتنازع حوله مشاعر الخوف والملكية والإسراف. ولكن هذا الرصيد من السنوات لا يقدر حجمه ومداه والخوف عليه إلا عند عتبة معينة، كأن هناك ميراثاً نفسيًّا ووصية لا تبوح بمحتوياتها إلا عندما نكون قادرين على ذلك ومستعدين له. في هذه المرحلة بدأ ينتابني إحساس بثقل الزمن وبالتركيز على مروره على نفسي، بالرغم من عدم وجود أي آثار جسدية تدل عليه. ربما الثقل يأتي من هذا الباب: من عدم وجود أثر ظاهر له سوى الخوف من هروب العمر من بين أيدينا. استمر هذا الإحساس حتى الثلاثين، سنوات مكشوفة وعارية ولا زيادة فيها سوى تلك الأرقام التي تضاف، الثامنة والعشرون، التاسعة والعشرون،

الثلاثون. يبدو أن سن الثلاثين تعتبر قيامة صغرى داخل عمر الإنسان، هذا التوالي والهدوء والملل في حساب السنوات سيصطدم بسن تحمل تغيراً وهي سن الثالثة والثلاثين، أو يمعنًى أشمل السنوات الأولى من الثلاثينات. في هذه السن حدث شيء لم أتوقعه من نفسي، شيء شبيه بدورات الحياة والموت، التي لا تسبقها أو تليها إشارة. شعرت بأن هناك شخصاً آخر بداخلي يرفض هذا الاستسلام للسن، ويتوق أن يكسر هذه المتوالية المتناقصة في الحماس وحب الحياة. في تلك السنوات القلقة استوطنت جسمي دورة أخرى من دورات الطبيعة، وروح ميالة للتضحية والمخاطرة والتمرد والرغبة في السفر. نفس السن التي صُلب فيها السيد المسيح أو رفُع إلي السماء. سن لها تقاطع مع تضحية إنسانية كبيرة حدثت في التاريخ وأرَّخت لشكل فريد من التضحية، التي أصبحت مع مرور الوقت منهجاً متوارثاً يعمل بجدية تحت جلودنا، ولكننا لا نراه. التضحية في تلك الفترة لم تكن موجهة لقضية عامة كما فعل السيد المسيح، ولكن من أجل قضية شخصية وهي إنقاذ نفسي وحياتي القادمة من التكرار والملل والنسخ. حتى الخامسة والثلاثين كان إحساس الشهادة، كما تفسرها الديانة المسيحية، أو الصعود إلى السماء كما يفسرها الإسلام، كلاهما يبشران بلحظتَي اختفاء وزوال قادمتين؛ كان إحساس الشهادة له الغلبة. وهو ما أعنيه بالقيامة الصغرى التي تهدد الجسم فيسعى لاستهلاك رصيده المكبوت من التجارب، ويُعرض نفسه لأقصى درجات المخاطرة، التي لا يملك غيرها في تلك السن، على أمل الشهادة والبعث، أو الانتقال والتسامي صعوداً إلى السماء، ثم تأتي المرحلة الأخيرة بالنسبة لي، بداية من الخامسة والثلاثين حتى الخمسين. وهي مرحلة هادئة تماماً،

لا أشعر خلالها بتوالي السنوات، كأني نسيتها. ربما هذا هو الشعور السطحي المباشر بعدم الاكتراث من تقدم العمر، كأن هناك، أيضاً، شخصاً آخر يتقدم في العمر. ولكن هذه المرحلة لها وجه آخر، وهو ظهور نزوع قهري نحو التسلل لأعماق الأشياء سواء تلمستها أم لا، بالإضافة للمتعة في تلك الاكتشافات الجوهرية والملتصقة بالأسئلة العادية، التي تحيط بحياتي، بعد أن تقلص حجم وعدد وتنوع الأسئلة التي كانت تؤرقني في المراحل السابقة. وربما هذا الانشغال هو الذي أنساني تقدم العمر والخوف من المستقبل. ولكن يظل هناك حساب وروزنامة أخرى للحياة، لا تنطبق عليها ألوان قوس قزح، وإنما لون واحد يظهر ويطفو على سطح النفس، في وجود الحب أو الموت، فكلاهما يعطلان أي تصنيف أو تعدد في الألوان، ويُفتتان نقاط تجلط العمر، ويفتحان الجسد والعقل على ابدية ملساء ليس لها بداية أو نهاية.

٣

الأنابيب، أكياس البلازما، أكياس الدم، زجاجات الأدوية، المضادات الحيوية، أكياس المحاليل الملونة، والتي كانت تتصل بـ ((الكانيولا)) المزروعة في وريد الرقبة الذي يصب مباشرة في القلب، والتي تركت أثراً في رقبتي مثل الأُثر الذي تتركه الشهوة الحارة لمصاصي الدماء؛ جميعها كانت تحدث صريراً عند أي هزة لها. لا يقل عن خمس أو ست توصيلات تنتهي بأكياس معلقة على حامل حديدي. ذكرني هذا الصوت وهذا المشهد بمشهد في فيلم ((المريض الإنجليزي)). تلك الزجاجات الصغيرة التي كان يحملها ذلك البدوي على حامل خشبي يمر عبر كتفيه، كأنهما جناحان، تتدلى منهما الزجاجات الطبية كثمار دانية لشجرة الحكمة الزجاجية. كان البدوي يخرج زيوتاً ودهانات من تلك الزجاجات ليطبِّب بها حروق المريض الإنجليزي، الذي سقطت طائرته في جنوب مصر، في واد صوره بصحراء الجلف الكبير، عند الحدود مع ليبيا. بين شجرتي البلاستيكية التي كانت ترعى حياتي، وشجرة البدوي، عقود طويلة تحول فيها شكل الحكمة من الزجاج، وانتقل للبلاستيك، ومعها تحول شكل الموت وطرقه. الحكمة المختزنة في الصحراء هي التي أنقذت هذا المريض

الإنجليزي وطببت حروقه، ونفس الحكمة مختزنة داخل جسمي الذي استلمته صغيراً ونما معي، عبر رحلة طويلة كان فيها الإنسان يقاوم تحولات الطبيعة وقسوتها، ويربي جسده. أنا ابن هذا الجسد المسافر في التاريخ، والذي يقف الآن في ذلك المكان الحرج بين الحياة والموت، منتظراً في أي الاتجاهين يتحرك أو يوجه بوصلة قلبه. كان صوت الاهتزازات والشخشخات التي تحدثها الوصلات البلاستيكية يصاحبني في رحلتي للحمام، في صحبة الشجرة التي تسير ورائي كظلي المنسي، ذهاباً وعودة. عندها يتجرد المكان من حولي، وتظهر تلك الصحراء التي يتحرك فيها البدوي بشجرة حكمته الزجاجية ويظهر هذا المريض الممدد على نقالة بدائية، مصنوعة من أعواد الخشب والقماش، وجسمه كله مغطى بقناع من الأعشاب والأقمشة والزيوت. كان صوت احتكاك الزجاجات بعضها ببعض، يصاحب هذه الرحلة المعذبة لهذا الجسد الذي يتحرك معي، كأنه إيقاع راقص للموت. ذهابي للحمام كان من أشق اللحظات على نفسي. أنادي على أحدهم ليفصلني عن أجهزة رسم القلب والضغط والتنفس، ويفصلني أيضاً عن شجرة المحاليل، كأحد فروعها اليابسة، وأخيراً يُسلِّك الأكياس والخراطيم التي تخرج من بطني وأنفي، وتلك المُعلَّقة بقضيبي. في حركتي البطيئة، وما يسير في ركابها من ذيول لسلاسل وخراطيم، كأنك تجر أغلالاً، لم تفارق خيالي صورة السجين الذي لن يخرج من قبوه المظلم. وهم يفصلونني عن هذه الأجهزة أتحول بين أيديهم إلى ماكينة سيارة لها تروس وصواميل وصمامات ومكابح. يجب أن تحفظ مكان كل ترس، صامولة، ولونها، حتى تعيد تكوين الماكينة من جديد. كان للحياء أو للخجل تفسير آخر داخل غرفة العناية المركزة. يدخل

الممرض أو الممرضة معك للحمام، كل شيء مكشوف. وأحياناً يمسح أحدهم مؤخرتك. أثناء سيرك تظهر مؤخرتك من ثوب العناية المركزة غير محكم الرباط من الخلف، يستسهلون تركه مفتوحاً لأنهم يعرفون أنك بعد قليل سوف تخلعه وتستبدل به آخر نظيفاً. هناك أشياء كثيرة محلولة وغير محكمة الرباط داخل هذا النفق الأخروي، وخاصة الحياة. يتم تغيير الثوب عدة مرات في اليوم، غطاء السرير، الملاءة الخفيفة، الكوفرتة الثقيلة، كيس البول، أكياس المحاليل، رواد الأسِرَّة، ممرضي النوبتجيات. ليس هناك وضع دائم لأي شيء، كل شيء في انتظار أن يتبدل. كل شيء مكشوف ومرغم على الظهور، نتفوق بمراحل على خجل واختباء الحياة العادية وزجاجها المعتم. حتى هذا البطن المفتوح، والذي تتدلى منه الخراطيم، هذا الداخل السري، والذي حافظ الناس على سرِّيته، أصبح مكشوفاً وله نوافذ. وسط هذا التحول هناك مشاعر كثيرة تأخذ طريقها في مصارف المستشفى. أحياناً كنت أطلب من إحداهن أن تمنحني يدها، أو تقف بجانبي صامتة، لأني جائع جوعاً فطريًّا أيقظه هواء هذا البحر الأخروي الذي أقف أمامه وأتنسم رذاذه. يوم القيامة كلنا سنقف عرايا الداخل والخارج، لن نرى بعضنا لبعض، كوننا في محطة انتظار، ولا نعرف بعد الاتجاه، أو غير مشغولين بالآخرين؛ بالرغم من توفر هذه اللحظة الفريدة في اكتشاف هذه الدواخل السرية للآخرين في هذه المحاكمة العلنية! أيضاً في العناية المركزة، كلنا في انتظار بين ضفتَي الحياة والموت. كنت أتعرى بدون خجل كصورة من صور ذرية يوم القيامة، كل ذرة لا تعرف ولا تأبه بمصير الذرة المجاورة لها. كنت أحتاج لهذا الآخر الذي لن أعيره التفاتاً يوم القيامة، وسط هذا الكرنفال من الرهبة والخوف والترقب الأخروي.

المرض يعطل تماماً مفهوم الخجل، وأيضاً الرغبة، وينقلهما لمكان آخر غير ظاهر، وتستمر تفاعلاتهما مثل تفاعلات المعادن في باطن الصخور. لذا من مظاهر قياس الصحة: الخجل والرغبة. لم أشعر بخجل من الممرضات المشرفات عليَّ أثناء التغيير اليومي على الجرح. فقط كنت أنظر لمكان بعيد، كأني غير موجود. هذا المكان البعيد كنت ألجأ إليه كثيراً، كنت مضطرًّا للذهاب إليه، كي أقلل من توتري داخل غرفة العناية المركزة. كل من حولي قريبون جدًّا من الموت، بل وينادونه باسمه بعد أن ذهبت الذاكرة وتحجرت اللغة، صار اسم الموت هو ((آه))، وعينه هي تلك العين المقلوبة على الداخل. لم أكن أقاوم مرضي فقط، بل الموت الذي يحف بي من كل الجهات، وأستمع لصوته عن قرب. كان عنبر العناية المركزة عبارة عن صوان منصوب من خيامية قماشة الموت بدرجاته وألوانه المختلفة. ((مس هدى))، كبيرة الممرضات، كانت جريئة في علاقتها بالرجال، وربما هذه الجرأة اكتسبتها كي تخفي خجلها الطبيعي الذي أتت به أول مرة في المستشفى؛ كمن تعوَّد ملامسة الأجساد الميتة، تبرد يده وتخلد روحه في كيس مومیائي. كانت تتغندر، تُسرح شعرها الأسود الفاحم، وتصنع قُصة على جبينها كممثلات السينما القدامى، كانت تفرض قوة شخصيتها بإتقانها لعملها، وسرعة تلبيتها للمريض. لولا قوة شخصيتها لضَعُفَت أمام هذا العري الهش الخالي من الرغبة وقبَّلت قدمي! اعتادت أن ترى الذكورة في أكثر مستوياتها هشاشة. أحياناً هذه الهشاشة يمكنها أن تولد الرغبة، كدورة جديدة مستعملة، ولكنها ستظل من أهم دورات الحياة القوية، كاحتواء أمومي لهذا الجسد الآخر. لا أستغرب من علاقات الحب بين المريض وممرضته، حتى ولو أخذت

شكل لرغبة في هذا الآخر، إلا أنها في جوهرها رغبة أمومية وغير قابلة للعلاج، باختلاف النوع والسن. وأحياناً تنسخ الشفقة صفة أصيلة من هذه الأم الكبيرة التي ترفرف فوق أجنحة الموت في المستشفيات. ((جولييت بينوش)) الممرضة الكندية، وبطلة فيلم ((المريض الإنجليزي))، كانت تمرِّض وتداوي ألم ويأس هذا المريض، الميؤوس من شفائه، بعد أن انتقل جسده من الصحراء وشجرة حكمتها الطبية، إلى سرير في دير إيطالي قديم أواخر الحرب العالمية الثانية. شرف المهنة جعلها ترى بعين جديدة، لا بد من الاستمرار، هناك نسبة أمل لا تتعدى الواحد في المائة؛ داخل هذا الواحد في المائة، أو هذا الحيز الضيق من الأمل، كانت تتحرك رغبتها، لتمنح هذا المريض، وجسمه المشوه بالحروق، بعضاً من جسدها وروحها. هذا الشرف يتحول مع الوقت إلى حاسة جديدة من حواس المرأة، تجعلها ترى الأشياء من حولها بعين جديدة، مزيجاً من الرحمة والقسوة، والأمل اللانهائي، وأيضاً اليأس اللانهائي.

كان هناك من يشاركني السرير، ومن أجله أخذ في الاتساع في عيني. مساحات غير مرئية أضافها لمرض، أو الانتساب لعالم الموت. تلك الوردة الحمراء التي كانت تتفتح ليلاً وتحتوي جسمي وتسحبه إلى أرض محررة من العالم الآخر. كأن المرض وطن يتعدى اي حدود. بدأت الحياة تفتح لي مساحات غير منظورة بداخلها، كأنها تودعني، بعد أن رأت هذا الغريم الضيف. الموت ليس ابن الحياة، ولا أحد خرافها الشاردة، ولا هو المتواطئ معها، إنه إحدى طفرات الخلق، طفرة الطفرات التي لا يوجد بعدها استثناء لأنها غير قابلة للتصحيح. الموت

له مكانة أعلى من الحياة، بل ويتجاوزها، لأنه لا دليل ولا أثُر على حضارته الغامضة إلا المحو والتحلل. الموت الندُّ الخفي للحياة، لذا الحياة تتبع خطواته وتأتمر بأمره، راضخة لهذا التمايز لقدري، بالرغم من كونها أسبق في الميلاد. كأن اللـه نظر للحياة فلم يحبها كلية، وعندما نظر للموت وجده أكثر غموضاً، ونشأت بينهما محبة لا تفسير لها، قبل أن تكتسب الأشياء والمخلوقات خاصية الحب والانجذاب! كأن اللـه لا يحب الوضوح، لأن الوضوح غير مركب. ربما اللـه خلق الموت ليتمايز على البشر، وكل مخلوقاته، بالخلود، وبدونه سنصبح آلهة أو مخلدين. اللـه هو الرابح الأكبر في سباق الموت. من المهم أن يكون هناك مكان صاف وخال من الأجساد والمعنى، مقابل الأرض وبشرها وزحامها واختلاًط وعًشوائية معانيها واتجاهاتها. عندما بدأ السرير يضيق مرة أخرى ويرجع لحجمه الطبيعي، وتنغلق أوراق تلك الوردة الحمراء، ذهب سحر عالم الموت وعاد الواقع بدون سحر، منحتني الحياة فرصة أخرى، وبدأت تلك المساحات غير المنظورة، أيضاً، في الانسحاب التدريجي تحت جناحَي طائر كبير؛ ربما كانت الحياة تدخرها لآخرين، أو لوقت آخر، ربما تكون لها أهمية في البندول القادم لحياتي، فقد انتهى زمن اللعبة، وفي انتظار يوم جديد. ليس في كل وقت سأعيش هذه اللحظات العالقة بين الحياة والموت، وليس في كل اللحظات ستكشف لي الحياة، كالساحر، تلك المساحات. لكن هذه المساحات لم تختف تماماً، ما زلت أحمل مذاق هذا البراح والحرية العدمية، التي بلاَ ظهر، التي منحني إياها الموت وأراضيه الشاسعة وشمسه الهادئة. عدت أكثر سماراً من صحراء الموت. نوع من السادية اضطرت الحياة لممارسته معنا، ربما لكي تكشف عمَّا

تخبئه بداخلها، عن ثرواتها الحقيقية، التي نتشارك جميعاً في وراثتها، والتي لا تُكتشف إلا بكسر قانون العدالة والمساواة أمام هذا الغريم والابن المدلل، الطارئ الغامض الذي يطاردها في كل منحنى وزاوية تتحرك فيها وتخلف آثارها، أو تضع فيها بيضها، أو تخبئ فيها فرخها الصغير. نوع من السادية أيضاً اضطررنا أن نمارسه مع الحياة، بأن نخفي تحت جلودنا هذا الحب للفناء، بينما نحيا بين جنباتها ونكدسها بالذكريات. كأننا نتخلى عن الحياة في اللحظة التي تحتاج فيها لمن يضع ولو ريش في كفة ميزانها أمام كفة ميزان الموت الراجحة. كنت أخبر أصدقائي عند زيارتهم لي بأن هذا السرير الذي يتحلقون حوله واسع وبلا ضفاف، وأنه بمثابة عالم بمفرده. لم أفهم سبب هذه الجملة التي كانت تخرج من فم اللاشعور مباشرة، إلا الآن. كنت أتكلم بلسان الموت، لأسبوعين كنت أتحدث باسمه وأنوب عنه في كل مهامه وأشغاله اليومية، قربي من الموت كان يضاعف المسافات، بل يضاعف كل شيء: الحواس، السكون، وصوت تلك الأقدام الحافية على الأرض الملساء؛ المرض يحرر حواس الجسم الداخلية ويصلها بسماوات وبحار وكهوف، يطوف بكل الأماكن التي استوطنها الإنسان في بدايات حياته على الأرض خوفاً من الزوال، كأنها حجة الوداع. يرتد الجسم ليعيد كل الذاكرات التي عاشها أسلافه، الطفولات القديمة. يضمها إليه كجزء من ميراث لن يستمتع به كثيراً وسيحتاج لملايين الذاكرات لتجسد الأبعاد الثلاثة لهذه الرحلة. تتوالى الصور وأتخيل نفسي، بالخراطين التي تخرج مني، كأحد الأسماك الخيشومية، وأن مكاني هناك تحت الماء، وسط الأعشاب وتيارات المياه الباردة. كان هناك آخر يرقد بجواري على السرير، له جناحان، أو يزحف على بطنه

في صحراء لا نهائية، أو يركب بُراقاً يطوف به على أزمنة التطور، من الخياشيم للرئة، ومن الدم البارد للدم الحار، من الذيل للِّسان.

من اللحظات الحرجة لحظة رجوعي للسرير، عائداً من الحمام، مع أطراف الأنابيب الخارجة من بطني وأنفي وقضيبي، جميعها تجعلني أصعد السرير على دفعات: أولاً رجلي اليسرى ثم يضبط أحدهم الأنابيب ويوزعها في مَجريَين مُخصصَين لها على جانَبي السرير، ثم أرفع قدمي اليمنى، عندها يكون السرير مفروداً عن آخره في وضع أفقي. لدقائق أشعر كأني مقطوع النفس، أو أتنفس بصعوبة تحت المياه، بسبب هذا الوضع الأفقي للسرير. كانت رئتاي تنقبضان بشدة، تلتصق جوانبهما مثل البالونة المفرغة من الهواء، وتتداعى أبعادهما. عندما كانت تفاجئني أزمات الربو في طفولتي كنت أضع تحت رأسي مجموعة من الوسائد، كأني أساعد الرئة على سهولة دخول الهواء إليها بالتقاط الهواء من فوق تلك القمم العالية. سرعان ما أمسك بريموت السرير، وأضغط بقوة على زرار تعلية للظهر، عندها أبدأ في استرداد نَفَسي رويداً رويداً. الريموت وقناع الأكسجين كانا من أكثر الأشياء التي لامستها في المستشفى. يوميًّا كان هناك قياس لنسبة السوائل في الجسم، ولا بد للجسم عندها من أن يكون في وضع أفقي، مثل نظرية الأواني المستطرقة. أتخيل السوائل تنتظم داخلي كسطح بحر في أحد أيام الصيف. في تلك اللحظة يتصل جسمي بكل الأسطح المائية في الكون. كل سوائل الكون تصب فيَّ، وأصب فيها، وتأخذ أخيراً هذا الوضع الأفقي العادل. كانت تطاردني، كومضات، تلك اللعبة الباقية من صالون الطفولة لبيتنا وبيوت الأقارب والأصدقاء، التي تأخذ شكل

نصف كرة زجاجي مثبت على قاعدة بلاستيكية مُقواة، والتي كانت تحتوي بداخل تجويفها على نموذج مصغر لمدينة مائية، بأسماكها، ومحاراتها، وبأعشابها، وبنجومها الذهبية، تتحرك وسط هذا السائل الشفاف اللزج، والذي له شفافية الماء، لتسمح بأن تتحرك هذه الأشياء عن أماكنها بحركة بطيئة، ترى لحظات التبدل لهذا الكون الصغير، ويتغبرَّ الزجاج بالنجمات الذهبية الصغيرة، ثم يعود كل شيء إلى مكانه. كنت أرى جسمي في هذا الوضع الأفقي مثل هذه اللعبة، هو أكثر الأوضاع المناسبة لترسب الذكريات وسوائل الجسم التي ازرقَّت من الألم. الممرضة، أو الممرض، كانا يتأسفان لي، لمعرفتهما المسبقة بمعاناتي في التنفس عندما يفرد أحدهما السرير على وضعه الأفقي، يتمدد مكان خياطة الجرح، كأني أفرد ياي بطني المتصلب، الذي اتخذ شكل جنين مقوس، وضد رغبته في الانكماش. دقائق وتضع الممرضة مسطرة مدرجة، رأسيًّا على السرير، بها أنبوب يتحرك به سائل مثل ((الترمومتر))، وتأخذ القراءة. كم كانت شاقة عليَّ هذه العملية، أقبض فيها على نفَسي مثل أيام الطفولة عندما نقبض أنفاسنا تحت الماء، أو خارجه، وبصرنا موجه لعقارب الساعة، لنقيس زمن ما قبل الموت مباشرة، حتى نثبت لأنفسنا أننا أصبحنا قريبين من ذلك الشبح، أو أننا دخلنا معه في علاقة تحدٍّ. منذ البداية الموت أحد التحديات الكبرى التي لا نعيشها إلا مرة واحدة، لذا ننسخها في تجارب صغرى ونوزعها على زوايا حياتنا. كأن هناك من سيكتب وراءنا نتيجتنا في هذا الامتحان الصغير الذي سيعقبه امتحان أكبر، ألا وهو البعث. بمجرد أن تفرغ الممرضة من أخذ القراءة حتى أضغط بقوة مضاعفة على سهم زر رفع الظهر، كأني أحلق بنَفَسي ورئتيَّ إلى تلك القمم كطائر عاد مرة أخرى

للسماء التي لا يعرف غيرها.

يوميًّا كنت أجري تدريبات للتنفس حتى أفصم بين جدران الرئة الملتصقة. أتت الممرضة بجهاز ظننته في البداية إحدى ألعاب الأطفال، الجهاز عبارة عن ثلاث أسطوانات طولية مصنوعة من البلاستيك الشفاف، قطر الواحدة حوالي 3 أو 4 سنتيمترات. ترقد بداخلها ثلاث كرات بلاستيكية ملونة بالترتيب: حمراء، صفراء، ثم خضراء، والأسطوانات الثلاث مثبتة بأنبوب علوي شفاف، وآخر جانبي قائم عليه، وهناك ثقب أعلى كل أسطوانة يفضي إلى تجويف الأنبوب العلوي. الأنبوب الآخر الجانبي له أيضاً تجويف من الداخل امتداداً للعلوي، ويخرج من فتحة أسفله خرطوم شفاف مثل خرطوم الشيشة. يجري التمرين بأن تأخذ نفساً من خرطوم الشيشة فترتفع الكرة الأولى بتأثير سحب الهواء من فتحتين سفليتين موجودتين في الأسطوانة الأولى في الأمام والخلف، وأيضاً في الاثنتين الأخريين، القريبتين من الأنبوب، والذي بدوره يأخذ في طريقه الكرة، وهي الكرة الحمراء، ويرفعها لأعلى داخل الأسطوانة؛ بقوة انتظام النفَس تبدأ الكرة الصفراء أيضاً في الارتفاع مع الكرة الحمراء، وإن تأخرت عنها قليلاً، وهكذا حتى تصل للكرة الخضراء، وهي المقصودة بهذا التمرين، لأنها الأخيرة، ووصولها حتى سقف الأسطوانة دلالة على سلامة النفَس، وتحقيق الغرض من التمرين. لثوان تظل الكرات الثلاث معلقة في السقف، الزمن الذي تستغنى فيه الرئةً عن أي هواء يدخلها. عندما كنت أسحب نفساً، كنت أشم رائحة شيشة حقيقية، واعتقدت لفترة أنها رائحة مقصودة من طرف صانع الجهاز. كان تأثيرها طاغياً، ولا يمكن

فقط أن تكون آتية من الذاكرة. كنت أقوم بهذا التمرين يوميًّا على فترات، في البداية كان من الصعب عليَّ زحزحة الكرة الأولى الحمراء. كنت أعلقها في منتصف الأسطوانة، وتظل تتذبذب مثل كرة الزئبق في ((الترمومتر)) في هذا الحيز في منتصف الأسطوانة، إلى أن تسقط. تحريك الكرة في الأسطوانة الأولى يحتاج لحجم هواء يبلغ 600 سم مكعب في الثانية، وفي الثانية الصفراء يحتاج إلى 900، أما في الثالثة الخضراء فيحتاج إلى 1200 سم مكعب، كما هو مدون أعلى كل أسطوانة. بالتدريب بدأت أتقن اللعبة، ومعها أصحت أدرب رئتيَّ على الامتلاء بالهواء. تطلع الكرات الثلاث لأعلى، تلتصق بسقف الأسطوانات الثلاث، يصدر صوت اصطدام متواتر بحسب أولوية وصول كل واحدة للسقف، ثم يتكرر عند نزولها لقاعدة الأسطوانات. من بعيد أسمع ترجيعاً لصوت لعبة كريات حساب الأرقام، التي كنا نتعلم عليها الجمع والطرح في الطفولة. الكرة الخضراء الأخيرة لها صوت مكتوم عن الكرتين الأخريين. كان هذا التمرين يثير جاري أشد الإشارة. لم ألحظ هذا في البداية، ولكن مع تكررا الأيام وجدته يهز قدمه بعصبية، وخاصة إصبعه الكبيرة، كأنه يهش ذبابة زرقاء لا تفارق هذه الإصبع، كلما بدأت في التمرين. طبعاً كان من الصعب عليه أن يبوح بما يفكر فيه، كانت أعضاء جسمه تنوب عنه في تبيان اعتراضه أو قبوله. بدأت هذه اللعبة تجذب انتباهي. أصبحت أتقن تعليق الكرات، لبرهة من الزمن، في المنتصف، بدون أن تقع. الألوان المبهجة للكرات كانت غريبة على عنبر العناية المركزة، وعلى حالتي. من الصعب أن تتخطى الكرة الثالثة الثانية، أو الثانية تتخطى الأولى، فالهواء يمر حسب الترتيب، كأن أقدارها مرتبطة ببعضها البعض، لحظة النجاح هي

صعودها معاً، وخاصة الكرة الخضراء، هذا هو القانون، وعلامة النجاح الكاملة. كرات حرة بلا جاذبية تتصاعد في الغرفة ليلاً، الأشكال الحرة في نصف الكرة الزجاجي لحظة فورانها وقبل أن تستقر في القاع ،رمال ونجوك وأصداف تلك المدينة المائية المصغرة. كل الألعاب كانت تنحو نحو الانعتاق من الجاذبية. أنظر للأشياء مليًّا فتدخل المجرة الحرة التي أهيم فيها وحدي. كنت ألعب ألعابي بالنظر بقوة للأشياء من حولي وأجدها، ضد قانون الجاذبية، تحلق في سماء الغرفة، الملاءة، وأدوات الجراحة، وقناع التنفس، حتى الأطباء والممرضات وحبات البرتقال.

٤

زمن المستشفى من أكثر الأزمنة كثافة، وإحساساً بالتحول، الزمن الذي يتقلب بين أقصى تدريج للمعجزة وصفر الموت. المعجزة أحد أساسات هذه المؤسسة المسماة ((المستشفى))، تتجول كل ليلة وسط هذه الأسرَّة والملابس البيضاء ورائحة الديتول وفنيك الحمامات. مواعيد صَارمة للأدوية تحشو هذا الزمن الكثيف، حتى يخال لنا أن هناك شيئاً يحدث ويتحرك، أو بذرة تشق طريقها لأعلى، لا شيء يحدث، والبذرة تشق طريقها لأسفل، هناك مطبخ كوني تُطهى فيه وجبتا الموت والشفاء. استيقاظات وغفوات مقتطعة، آلام بلا مصدر، توالي الليل والنهار المبطنين بمواعيد الأدوية، وبالإضاءة الصناعية. زمن مثل زمن القطار، بالرغم من قِصر مدة السفر، ولكن المسافة تضاعف الإحساس بالزمن، كونه خارِج سياقات أزمنة الحياة اليومية وأزمنة الذاكرة. الأزمنة غير مستقرة، يتغير الإحساس بها تبعاً لنوع المواجهة. أمام الموت ينتصب الزمن، تعود له أُخُوَّتُهُ، الإخوة الأعداء. كانت مصادفة أن يأتي سريري أمام ساعة الحائط. كان الوقت يمر، ولكن بشكل مختلف عن حياتي العادية، هناك وعي ووزن كل دقيقة وثانية. كل ما هو غير مرئي، ونأخذه كشيء مسلَّم به في حياتنا العادية، ولا يثير

حتى انتباهنا، كالوقت أو الزمن أو رائحة البرتقال، كان هنا في غرفة العناية المركزة هذه له ثقل وحضور ماديان، ربما لاتساع الوعي بالزمن حتى تتلمس ماديته، ماديته هو، وليس عبوره وإحساسك بالفناء. كأنك في سباق لا يوجد به خط نهاية. كان مرور ربع ساعة أحدا لإنجازات، كأني أنا الذي أطهو الوقت، أو أمسك بذيله وأسحبه تجاه الجهة الرابحة. كنت أقول لنفسي: لقد بعدت ربع ساعة عن النقطة التي بدأت فيها السباق مع الموت، وأيضاً ربما اقتربت ربع ساعة منه! الموت كان يسحب العقارب، لزمن صفري، في الأمام أو الخلف، لسكون مادي، كلحظة التطابق بين العقربين، وزرجنة ورعشة لحظة الانفصال بينهما، ثم استعادة كل عقرب لمسار دورته من جديد، عقرب الساعات بحركته الرصينة، وعقرب الثواني بهوجائيته، وقفزاته المتتالية. كان الوقت يمر ببطء، ويضع بصمته، ودرجات ألوانه، ومثقال ذراته على كل شيء من حولي. تتمنى أن يكون الوقت هو قبضة الريش التي تنفخها مرة واحدة، ولكن هنا، كل شيء يحدث ببطء، ومصحوب بسأم انتظار النهاية. كان هناك عمل دؤوب لهذا الجسد الساكن، مهمة أن أُبْقِيَ على الحياة، وأشد العقارب لزمن آخر، وأمنع بقوة تركيزي هذا التطابق ولحظة السكون المؤقتة بين العقربين، لحظة التقاء المادة بالروح المتسربة من وراء ظهر الحياة. كل التجارب الساحرة للمخيلة وجدت أخيراً المكان الذي تتحقق فيه. كنت أخشى من هذا الباب الخلفي الذي يمكن أن تتسرب منه الحياة دون أن تودعني، أو دون أن أودعها. الحياة داخل هذا الحيز كانت معلقة على هذه العقارب. وعندما خرجت لغرفة عادية كانت الساعة معطلة على السادسة إلا عشر دقائق. أمام هذه العقارب المحنطة لم أجد أي رغبة في المقاومة، بالفعل كأن الزمن توقف، وهذا

هو برهان الموت الأكيد. أصر صديق لي على أن يأتي ببطاريات جديدة، حتى يعيد أمام عيني سيولة الوقت. في أحلامي التالية رأيت ذلك الباب الخلفي مُسمراً بصليب من الخشب.

بمجرد انتهاء الزيارة الليلية، التي تستغرق ساعة، من السابعة حتى الثامنة، أواجه بأصعب الأوقات، والتي أتمنى أن أقضيها نائماً حتى صباح اليوم التالي، بدون أي إحساس أو يقظات مخنوقة. تلك اللحظات المسروقة، والتي تتبخر في الهواء بدون ذكريات أو ذاكرة تحصيها، هي ما كنت أرنو إليه كأهل الكهف، ولكن على نموذج مصغر، كنت أرقد في كهف حياتي انتظاراً لبعث ما؛ أصحو وقد مرت الأحداث الملمة أثناء النوم! طبعاً كان يقطع رحلة الأرق الليلي كثرة المحاليل والأدوية التي تملأ فراغ وقلق هذه الساعات حتى الصباح. كل ساعة هناك من يضع يده على كتفك أو يهمس في أذنك، لو أخذتك غفوة، ليضع لك الدواء أو سن الإبرة أو كيس البلازما أو زجاجة المضاد الحيوي. بمرور الوقت، وبثقل هذه الساعات، زاد تعلقي بالمخدر، وزادت جرعاته. أمبول صغير كلما رأيته في يد الممرضة، وهي تسحب محتوياته بالإبرة، ثم تنزع السن، ثم تضخها في الوريد وتكبس عليها بإبهامها حتى آخر قطرة عالقة بالجدران؛ أشعر بالراحة أو أجلبها من كهفها السري القديم في هذا الجسم، حتى قبل أن يبدأ مفعولها وتصل لمراكز الألم. أحياناً كنت ألحُّ عليهن عندما يماطلن خوفاً من إدماني لها، فأطلب الطبيب النوبتجي حتى يسمح لي بجرعة إضافية، حتى أنام، أو على الأقل أشعر بذلك الاطمئنان النفسي لمدة ساعة، كانت توازي، بالنسبة لي، درجة أخف من درجات الألم.

الإدمان كان أهون بكثير من هذا الفراغ النفسي الموحش الذي كنت أشعر به وبآلامه داخل هذا النفق الأخروي الذي كنت أعبر به. عند الساعة التاسعة مساء سأنادي على هذا الممرض المار أمام السرير، وأطلب منه بصوت متوسل مبطن بشفرة موسى حادة أن يضخ هذا السائل السحري في ((الكانيولا)) المتصلة برقبتي. عند بدء سريان المفعول كنت أغمض عينيَّ استعداداً لتلقي الوحي والقبض على الراحة ويعينيَّ مغمضتين. كنت أرى أمامي مجموعة كبيرة من الزجاجات الملونة، كالتي أراها في أفران الزجاج البلدي في مصر القديمة، مصفوفة على منضدة. كانت المنضدة تترجرج كأنها طافية فوق سطح مائي، ومعها تترجرج الزجاجات، وتصدر صوت ارتطام أنيق فيما بينها، بدون أن تسقط. وأنا أترجرج معها، في سريري، وأتماوج مع السلم الموسيقي لرنينها كقطعة دخان. كانت ألوانها تتداخل في صدري، الذي أخذ يتسع ويطوق هذه الزجاجات؛ وتصبغني في توالٍ لوني، دخول وخروج اللون من صدري بدقة وبدون تداخل كأنَّ هناكَ مهمة تعرف الألوان خطواتها جيداً. أحياناً مكنت أرى سريري يتدحرج إلى أسفل كأنه على منحدر، ويجوب بي أرجاء المستشفى، المصمم بانحدار إلى أسفل بنفس جغرافية الحلم، ثم يصل لمكان مظلم له ستارة كبيرة، كسينما السيارات. أدخل، بينما أتعثر بتلك الستائر العملاقة، لأجد شاشة كبيرة ومجموعة من الأسِرَّة المنتظمة في صفوف بمرضاها، وبجانب كل واحد شجرة محاليله، وَالجميع شاخص ببصره ناحية الشاشة لمضيئة التي تعرض أحد الأفلام. كان المخدر يصنع رحلة داخلية كرحلة الرغبة وطوافها في أحراش العقل البدائي للإنسان. هذه الرحلة الليلية كانت أحد أسباب شفائي. كان العقل الباطن نصيراً

لي في هذه الرحلة، ككيس الفشار الكبير الذي يكسر حدة الظلام بالنسبة للأطفال في صالات العرض. كان يأخذني لهذا العالم الملون من الزجاجات والأفلام، بالرغم من أني لم أستر يوماً وأرى هذا الفيلم الذي يعرض يوميًّا على هذه الشاشة المضيئة، لأفهم رسالة العقل الباطن الذي يريد أن يرسلها لي عبر هذا الفيلم المتكرر؛ إلَّا أني كنت أجد في هذه الشاشة المضيئة كوة أمل تعكس تفاصيل حياة أخرى قريبة، كأنها نبوءة بأني سأعيش. كان السرير هو الرمز المشترك بين كل رحلاتي الليلية، ويبدو أنه كان بالنسبة لي أكثر من كونه سريراً، لتكرار ظهوره داخل هذه الرحلات. كان العقل الباطن يمنحه رمزية ثابتة كالوطن، أو الأرض الأخيرة التي ستراها عينك، والتي أؤسل لها نُوح الحمامَ من فوق أرض سفينته المؤقتة، أرض مؤقتة تبحر، كسفينة نوح، اتخذت شكل سرير، وما عليَّ سوى أن أفك زواياه الأربع ليعود كما كان. كان لهذه الرحلة فضل استعادة للغة وإشارات العقل الباطن ولجزء من موهبته التي حرمت منها طويلاً. كنت أحب هذا المستوى من الإدراك الذي يجعلني أستمتع بالرموز المهداة من العقل الباطن، وحتى بدون الحاجة لتفسيرها، كانت تبعث فيَّ طمأنينة كون هذا العقل متضامناً معي ويرسل لي رسائله حتى أصمد وأقاوم.

في اليوم الأول لتعليق المحاليل شعرت بأننا في صيف مبهج، ورأيت في لون البلازما الأصفر لون عصير المانجو، وفي لون المحلول الأخضر لو عصير الليمون بالنعناع، وفي لون المحلول الأزرق زرقة مياه البحر في الصباح. هذه العصائر الصيفية كانت تصب في القلب مباشرة من أقصر طريق، ويلفح جسمي الساخن هواء هذا الصيف المنعش.

جزء من أثيرية هذا العالم الشبحي انتقل إلى مادة جسمي، وأصبحت شخصًا أثيريًّا غير مرئي، أتحرك بين صور حياتي المعروضة على شاشة مخيلتي كأنني لا أنتمي لها كلية، وهي لا تنتمي لي كلية. هناك انفصال صنعه الموت، بذرة اغتراب متبادل نمت بيننا، أمسك بالأشياء في مكان آخر غير مكانها، أو في زمن آخر غير زمانها; كل الأزمنة كانت مفتوحة في ((ماراثون))الذاكرة، وأتعثر بينها كأنني فقدت مسار حارتي التي أجري فيها. ملمس الأشياء في يدي كأنه ترجيع لماضي هذه الملامس. أصبحت قريباً من شبح زوج "ديمي مور"، في فيلم "شبح": بعد وفاته في جريمة قتل عاد شبحه ليكون بجوار زوجته. لم تكن تراه، لكنها كانت تشعر بوجوده، بهواء بارد يتشعب في نسيج جلدها فتقشعر عندما يحضنها من الخلف كما كان يحضنها في حياتهما السابقة. كنت أستحضر سلوى وأنا نائم، وتدور بيننا حوارات دافئة أملأ بها ثقوب هذا الثوب القديم الذي يلبسه ليل المستشفى.

عادة ما كانت مواعيد الزيارة تمتد لربع ساعة إضافية كالوقت الإضافي في المباريات. داخل هذا الوقت الإضافي تتجمع كل الأمنيات: كل زائر يريد أن يتخطى الزمن المحدد له ليشبع من مريضه الذي يقف على أبواب الآخرة، فربما يغادر الحياة خلال هذا الوقت الإضافي. عادة كان عامل العناية المركزة، الذي أشك في كونه يأخذ إكراميات كبيرة من الزائرين كي يسمح لهم بوقت إضافي، كان يلح على ابنة وابن جاري في السرير المجاور، والذي كان في مرحلة متأخرة من المرض، بوجوب مغادرة المكان حتى لا يُجازى. يخرج ويعود عدة مرات بنفس الطلب، فقد استنفد الوقت الإكرامية التي أخذها. كانا يستشعر الموت في كل

لحظة، لذا كانا يتثاقلان في حركتهما وفي تنفيذ تنبيهات العامل بالمغادرة، كأنهما يتحركان في مشهد يتم عرضه بالتصوير البطيء. زمن المستشفى كل يعتبر زمنًا إضافيًّا قارب أن ينفصل عن أزمنة الحياة الأصلية. لم أستوطن المستشفيات كثيراً من قبل، مات والدي في البيت، وأمي ماتت في المستشفى بعد دخولها بيومين، ولم يطل زمن أملي بنجاح العملية. كلها أوقات مستقطعة، لا ترى فيها إلا عالمك الشخصي وتضاعيفه وانعكاساته، ولا تملك رفاهية أن تكشف شبكة أعصاب هذه المدينة. لم آخذ مركز المراقب، إلاَّ وأنا عصب مكشوف داخل هذه الشبكة. أتذكر عندما استوطن صديق لي أحد المستشفيات العامة نظرًا لحالته المزمنة، على مدى سنوات كنت أتنقل معه تبعًا لتطور حالته، ومعها يتغير عنوان الزيارة، كل زيارة له كانت تدخلني في حالة صمت تام لساعات بعدها، أو الأيام، حتى اعتدت على الصور الصامتة للألم.

كان المستشفى كبيراً ومأهولاً كحي سكني شعبي، ممرات، وانتظارات، وأزقة، ومباول، ونصبات شاي، المستشفيات مدينة كبيرة للألم. كل المشاعر التي تحتويها البيوت ونحتفظ بها تحت جلودنا يمكن أن نراها واضحة هناك في المستشفيات، وأولها الخوف من الموت. لا يمكن أن نؤجل خوفنا أمام هذا الكم الهائل من الآلام، وأمام هذا الترقب. كل سرير تلتف حوله أسرَّة موجوعة بعيون لم تنم لعدة أيام، وفي الممرات هناك مظاهرة صامتَة، مجموعات أخرى تقف على قدم واحدة، والأخرى تنتظر الأوامر لتتحرك، ورؤوسهم إلى الخلف ينتظرون أي بارقة أمل، أو أي ظهور لطبيب أو ممرضة ليسألها عن الحالة. أما من

هم بالداخل ملتفون حول المريض فليس أمامهم وقت للترقب، فبكل يد هناك كتاب للأدعية وصلوات داخلية تتلى و((مونولج)) مصور برحلة طويلة مع هذا المريض المسجى. الصور أحيانًا أقوى من الأدعية، لأنها تجلب لنا في تلك اللحظات الحياة بوجهها السعيد، وتجلب لنا وجه المريض وهو في أقصى حضور له. التمسك بالحياة دواء فعَّال للمريض، وأيضًا للمحيطين به، الدواء الذي لا يكتبه طبيب، وإنما نشحن به أنفسنا في تلك اللحظات، يغمرنا الأمل حتى ولو كان كاذبًا. يكتسب الموت رموزًا يتعارف عليها الجميع بدون أي لبس في التفسير، مثل العين المفزوعة للأقارب، أو البكاء في زاوية بعيدة حتى لا يرى المريض موته شاخصًا في عين أقاربه، أو الحركة السريعة فوق العادة لطاقم التمريض في الردهات، الصوت العالي والتنبيه الذي يتكرر باستدعاء الطبيب في محطات بث المستشفى، جميعها تزيد احتمالات الموت حول سرير ما في طابق ما وسط هذه المدينة متعددة الطوابق. في المستشفيات العامة، التي تبدو كأحيائنا الشعبية، الموت صريح ومكشوف، ويمكنك لو كنت حاضرًا بالصدفة أن ترى مشهد الموت بكل تدرجاته أو تلامس عن قرب هذا الجسد النائم. أما في المستشفيات الخاصة فالموت محجوب خلف الزهور ورائحة البرفانات، وأناقة الممرضات، وأنف الاستشاري، والصمت القاتل الذي يغلف الردهات، والعزلة والسرية التي تحيط بهذا الجسد عند دخوله، وكذلك عبر الفواتير والعلامات التي تسجل في دفاتر المرور للاستشاريين الكبار، كل شيء محسوب بدقة ولا تهاون في خروج الجثمان، وبصحبته فاتورة ضخمة، للعالم الآخر. السجائر التي تُستهلك في تلك المستشفيات، في بلكونات مثلجة وفي زوايا مسموح

فيها بالتدخين، هي أكثر بكثير من تلك التي كنا نستهلكها في السينمات. دخان لا يصعد أمام ضوء يأتي من الشاشة ويسحب معه الخيال، إنما هو دخان حزين بلا خيال، لتُزجي وقتًا طويلاً في الانتظار، ولتردد حركة اعتدت عليها في حياتك العادية خارج المستشفيات، لتشعر بأنك ما زلت هناك، ولم تعد بعد أحد مواطني هذه المدينة الموجوعة. في المستشفيات ترى الخريطة الطبقية لمصر بوضوح. هؤلاء المختبئون في القرى والنجوع والهوامش البعيدة، يدفعهم المرض للظهور في الضوء، يأخذهم من أيديهم ويسلمهم لضوء العاصمة، من معمل تحاليل إلى صور للأشعة إلى عيادات الأطباء وصولاً إلى سرير في المستشفى العام. عبر كل هذا يتضخم المرض ويتضخم الوهم وتُكتب سيرة أخرى لهؤلاء البسطاء. لن يأتي المريض إلى العاصمة بمفرده، بل بصحبة عائلته، وكلما زاد زمن المكوث والعلاج، تضخم الملف العائلي، ودخلت شرائح جديدة إلى ضوء العاصمة، ضوء بارد يدفع إلى اليأس، ضوء اجهزة الأشعة وصالات الانتظار في عيادات الأطباء، تشعر أن مصر كلها مريضة، وملفها الطبي ضخم للغاية. في تلك المدينة الموجوعة الزمن مضغوط، لأن الحياة قصيرة، لذا يمكن أن تتبدل عليك في ساعة واحدة أطياف من المشاعر، ما بين التفاؤل واليأس، والتحفظ والصمت. إنك تلعب لعبة دقيقة مع الموت، لا تعرف صورته، لذا تعدد من صور مشاعرك ليختار منها، تتمسك بالأمل لتنصب له فخًّا، لإطالة زمن الطمأنينة والفرح والصحة، ويمكنك كذلك أن تقابل إحدى صور القدر هناك، عندما يلقي عليك الطبيب أو المساعد بحالة مريضك الخطيرة. كل ما سمعت عنه من أمراض وحالات مستعصية، وكذلك خفت منه، تجده في المستشفى

قريبًا وأليفًا للغاية. الصدمة هي أقل ما يقال في تلك اللحظات التي ينضج فيها الإنسان مراحل، ويكبر فيها حزنه، تصبح هناك جملة تستخدم كالأيقونة ((نعمل اللي علينا والباقي على ربنا))، في تلك اللحظة يقطع المريض المسجَّى خطوة في ذاكرتك باتجاه العالم الآخر. حدود المستشفى لا تقف عند حدود أسواره الخارجية، بل تمتد لتشمل المقاهي المحيطة، ومواقف السيارات والمطاعم، يخلي المجال من حوله ويقتطع أراضيَ جديدة من حيز مدينة الأصحاء. أعداد كبيرة تنتظر خلف الأبواب ميعاد الزيارة، وهناك من ينتظر خروج الجثمان، من الأبواب الخلفية، وسط صراخ نسائي. يصدر الموت إلى الخارج، وتوضع علامة سوداء في خانة مدينة الأصحاء. هناك عربات إسعاف تنتظر أن يُملأ جوفها بهذا الجثمان. هذا السائق هو الذي يقضي الرحلة الأخيرة مع الجثمان، مع أنه لا يمَتُّ له بأي صلة.

٥

في مدينة المرض السرير هو العنوان كلوحة رقم البيت المعدنية. كان اسمي في غرفة العناية ((سرير رقم اتنين))، وأحيانًا ((حالة رقم اتنين)). بجواري في سرير رقم واحد كان هناك رجل مسن تجاوز السبعين، لم ألمح إلا جانب وجهه وجسمه طوال فترة إقامتي في العناية، والتي امتدت لأسبوعين، حتى دخوله في الغيبوبة الأخيرة، لكن صورته تكونت لديَّ من صوته وعقله الباطن، الذي كان يتحكم في حياته في تلك الأيام. عبر هذا العقل الباطن كشف زمنًا سحيقًا عندما تحدث عن عمله القديم كتاجر للموازين، وأيضًا عن نشأته في إحدى قرى محافظة البحيرة، وهجرته مع والده للإسكندرية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وتذكَّر عَرَضًا بعض منازعات حياته التي خطَّ تحتها علامات حمراء عديدة حتى لا ينساها في تلك الأوقات الحرجة التي تسيح فيها الذاكرة. وتذكر بعض أسماء من وقفوا له بالمرصاد، وأشاعوا في نفسه الفوضى والخوف، وبعثروا تراب كونه الخاص. كانت حياته في تلك اللحظة كمائدة طويلة عليها صنوف عديدة ومتنافرة من وجبات الطعام. عقله الباطن كان يبحر في التاريخ، ما يسكن وراء نزاعاتنا وتفاصيلنا، غير مقيد بزمن محدد، وغالبًا تتجمع تلك الصنوف المتنافرة في ذُرى

حكايته، بل تتعداها لحكاية أكبر، أصبح في وضعه الصحي هذا قريبًا منها ومن أبطالها، قريبًا من كواليس حياته عندما كانت روحه تأخذ شكل حمامة، هناك ذات مصونة تنتظر أن نتفرغ لها ونرى البهاء الذي احتفظت لنا به. كل هذه الأسرار التي كان يسردها، ككتاب المطالعة، كانت متناثرة كالنجوم المضيئة وسط سماء مظلمة من الصراخ والتأوه الحادَّين. في الزيارات الصباحية والمسائية كان يعوده ابنة وابن في سن متقاربة، ما عدا استثناءات قليلة زاره فيها بعض أقاربه الكبار الذين ما زالوا على قيد الحياة. كان وجهه يتهلل لمرأى وجه أحدهم. ربما لم يكن له أي خصومة مع ذاكرته التي لم تعد تحتفظ إلا بالخصومات، حتى تصفيها في أعمق أعماقها قبل انتقالها لطور البعث والتبعثر في سماوات الذاكرات المنقضية. كانت وظيفة الابنة، طوال ساعة الزيارة، أن تذكرة بالآخرة التي يقف على بابها، عبر تلقينه اليومي لآيات من القرآن، وتنتظر أن يكررها وراءها، كأنها تضع ملعقة دواء السعال المر داخل فم مزموم. كنت أجزع من سماعي لهذا التلقين اليومي الذي تقوم به. أشعر بهذه الكلمات والآيات كقصيدة رثاء طويلة تلقيها في وداعي أنا، وليس هو. أما الابن فقد كان يكبِّر دماغه على هذه المنطقة الشائكة، كان يعيد على مسامع أبيه مفردات من قرآن آخر، عبارة عن ألفاظ ومصطلحات قديمة، نَدُر استعمالها الآن، كان الأب يرددها في طفولة الابن، مثلاً ترديده عند عودته في راحة الظهيرة من العمل، القريب من البيت؛ جملة ((أنا داخل أتسطّح شوية))، والتي كانت تعني نومًا خفيفًا في ساعات القيلولة بعد تناول الغداء، أو ((إديني نايبي))، ويقصد: ((أعطني نصيبي))، أو ((حلالي بلالي))، كان هذا المصطلح الأخير يردده الأب كثيراً أثناء وجبات الطعام، عندما يستبقي حبة

اليوسفندي أو البرتقال التي لم يأكلها ظنًّا منه أن الممرضة ستأخذها معها في الصينية وستحرمه منها، لأنه لم يأكلها في حينها. كان يرفعها أمامها، ثم يخفيها تحت إبطه مردِّدًا هذا الشعار. كان الابن يتحايل على العقل السائح لأبيه، وسط سماوات الذاكرات المنقضية، بأن يضع أمامه مزارات وشواهد لغوية لهذا العقل، مسارات قديمة للنجوم، يرده لزمن قديم محبب لكليهما، زمن ما قبل الأزمات. في نهاية الزيارة كان يطلب من أبيه أن يُقبله، بل يتحايل عليه، بينما الأب رافض تمامًا لأن يستجيب لهذا الطلب الغريب، لأنه ببساطة لم يعد يتعرف على هذا الوجه الذي يطلب منه قُبلة. الابن كان يريد أن يأخذ أي ذكرى خاصة من هذا الأب الراحل بعد قليل، يوم، يومين، أسبوع، هكذا كان الزمن في مقياس صبر الابن على جفاء الأب، وتعنت ذاكرته لا يتعدى شهرًا على الأكثر. كنت لا أزال أعي معنى هذا الوداع الرتيب عند الابن والابنة، كل بطريقته، وأعي ذلك الخط الأحمر الذي لم أتجاوزه بعد. أما أبوهما فقد تخطاه بفراسخ، وأصبح يشير لهما، ولنا جميعًا، من تلك الجهة الأخرى. داخل العناية المركزة هناك تبادل للأدوار وللخطر، ذاتك مفتوحة على كل شيء، وقابلة لتقمص أي شيء، حتى ولو روح قطة شاردة، أو ذبابة زرقاء طائرة، برودة مقبض نحاسي، ويمكن كذلك لروحك أن تدخل في أي جسد، ويمكن لأي روح أن تدخل جسدك، ويؤثر فيها حتى تلك الكلمات المهموسة من الممرضات في الليل. جهاز التنصت لأي نزيل موجه لالتقاط هذه الهمهمات، وقراءة العيون التي تدور حول سريره، الغريب أن الأب الذي كان يرفض أن يمنح ابنه قُبلة الغفران، كان يستجيب لابنته، خاصة عندما تطلب منه أن يردد وراءها ما حفظه من تلك الآيات التي سيقرأها بعد قليل أمام باب الله.

كانت الابنة تمثل قسيس الغفران والساعات الأخيرة. كانت حياته موجهة لهذه اللحظة، والراية البيضاء للموت طافية فوق أي بحور من النسيان، لم يكن ليسقط هذه الذكرى التي استعد لها، وظلت مشرئبة برايتها البيضاء، ولن تأكلها دودة الذكريات. أيام، وفقد الرجل القدرة على الكلام حرفيًّا، لم يبقَ من الأبجدية إلا كلمة ((آه)). تم تنقية القاموس من كل الكلمات التي لا يحتاجها الآن. أحسست ساعتها بأن اللغة تسربت من باب خلفي في الذاكرة. بعدها بساعات امتنع عن الطعام، كأن هناك علاقة بين فقدان اللغة وفقدان الشهية. يبدو أن اللغة علامة لكرامة إنسانية، وفقدانها يشكل انحطاطًا في الدرجة وتفريطًا في أحد أشكال الوجود، والتي تتساوى مع أهمية وظائف الأعضاء! مرة واحدة تدهورت حالته، وأصيب بإمساك شديد، وانتفخ بطنه كبطن غريق قضى شهورًا ينشع تحت المياه. كل من يقترب من بطنه يرفسه بقوة من شدة ألمه. أثناء نوبات صحوه النادرة كان يستجمع قوته ويمسك بمقبض السرير، ويحاول القيام والنزول والسير، كانوا يمسكونه ويسألونه: ((إلى أين؟)). لا يجيب إلا بجملة: ((عايز أمشي)). كانت هناك وجهة يعرفها وسط هذا الهذيان وتشوش الجهات، أو أن الجسد يحتفظ بمسار وحيد للهرب عندما تدق الأجراس أو تضاء الفلاشات الحمراء، مثل الاسم الذي يحمله الطفل التائه على صدره كي يستدل عليه أحدهم ويعيده لبيته. هذا الشيء الذي لا يُستخدم إلا لمرة واحدة ولغرض محدد، وبعدها يبطل مفعوله، والذي لا يعرف العقل بوجوده داخله إلا لحظة الخطر، عندما يفتح تلك الورقة المطوية داخل تلك الخزانة الحديدية للذاكرة. ربما هذه اللحظات التي رغب فيها في الخروج هي اللحظات العاقلة الوحيدة.

أجروا له غسيل معدة بعد أن حقنوه بمخدر، ويبدو أن الموضوع فشل وسبَّب له مضاعفات حادة كانوا يتوقعونها؛ فدخل في غيبوبة، واضطروا أن يمدوا خراطيم من البلاستيك، تشبه في سُمكها خراطيم الحدائق، داخل فمه. كان شكله يوحي تمامًا بأن الحياة لم تعد موجودة هنا، وهذه الخيوط هي المرحلة الانتقالية، أو الجسر الذي ستنتقل عليه الروح الخفيفة في الاتجاه المعاكس. صار جثة هامدة منتفخة البطن، لا تملك إلا عشرين في المائة من كفاءة القلب، كما أخبرت الطبيبة أهله حتى لا يتعشموا خيراً عند إفاقته، لو حدثت! كانوا يغذونه بالمحاليل، وهناك عدة أجراس إنذار مثبتة في كل الأجهزة والمحاليل المتصلة بجسده، ترن عند توديعه الحياة، أو عند حاجته لشحنة كهربائية لتنشيط هذه العشرين في المائة الحية من القلب. بالفعل دوى صوت جرس الإنذار عدة مرات، فقد كانت الحرائق تندلع بصورة جنونية في كل مكان في الجسد. وعندها ترى هرولة أشباح من حولك، وتُحَلِّقُ حول الجسد كأنهم في لوحة درس التشريح، الحلقة التي لا تكتمل إلا حول الجسد الساكن، والتي أصبحت مع كثرة استعمالها أحد رموز الاكتمال أو النهاية. جاؤوا بجهاز تدليك القلب بالشحنات، وأوصلوه بجسمه، يبدو أن الجهاز كان خربانَ، فلم يؤثر في العشرين في المائة الباقية في عضلة القلب. واضطروا لأن يستدعوا فنيَّ إصلاح الأجهزة فجرًا، الذي وقف في غلالة النوم غير منتبه الحواس لكل ما يحدث حوله، ليختبر صلاحية الجهاز وسبب العطب أمام هذا الجسد المنتفخ. شيء كوميدي بالفعل، ولكن النكتة الآن هي الجسد العاري المستسلم. أثناء تعريضه للصدمات الكهربائية سقطت ثلاث برتقالات من فوق سريره وتدحرجت على الأرض، إلى العتمة المحيطة بسريري. لم يَسْعَ أحد

لالتقاطها، كأنها انتقلت مع روح صاحبها لعالم غير مرئي، كان لها توهج اصفرار فسفوري منح البلاط الأبيض المكسور سحر حياة بعيدة المنال.

كل هذا كان يدور حولي، كأنني في حرب تتساقط فيها الجثث من حولي، بينما مظلات الأعداء تتساقط وراء خطوط الدفاع، وتنتشر رائحة البارود وسط الغابات. لا آبه بكل هذا، لأننا في حرب، أركب على سفينة روحي وأجدف بقوة كي أجد هذه الثغرة التي سأنفذ منها. كنت أحتمي بجدار من الصوت العالي بيني وبين ألم جاري. كان صديقي قد ترك في غرفتي جهازًا صغيراً ((آي بود))، سجل لي عليه بعض مسرحيات البرنامج الثاني، وأغاني عبد الغني السيد، وسيد درويش، وغيرها. هذا الجهاز كان أحد اهتماماتي في الغرفة. أقوم في الصباح لأبحث عنه، خوفًا من ضياعه. أصبح هناك شيء ثمين على سريري، غير روحي، يحتاج لانتباه. كان بمثابة الطرف الآخر من لعبة المطاردة، كالقط والفأر، التي تشبع الرغبة في البحث عن شيء ضائع، أو على وشك الضياع، أو تستعيد ملكية على وشك الاستيلاء عليها من آخرين. هذا الجهاز كنت أَسُد به أذنيَّ عند سماعي لتأوهات جاري، أرفع الصوت على آخره، ومعه يرتفع الجدار العازل بيني وبينه. في تلك الليلة كان استسلام جاري وغيبوبته أكثر وطأة من صوت ألمه الحي، شعرت بخوف أكبر لم تفلح معه جدران الصوت، رحت في بكاء كوني، أرجِّع صدى رعب الفناء المدفون بداخلي. بعدها شعرت براحة وائْتَنسْتُ لغياب صوت جاري إلى الأبد. كانوا يحيطون بالجثة غارقة في المحاليل. كنا جميعًا معلقين بأنابيب في معمل كوني في بداية الحياة

يحفظوننا لحياة أخرى. يجمِّلون الجثة كأنهم يحنطون مومياء حديثة. في تلك اللحظة كنت أطلب منهم وأترجَّاهم أن يسدلوا الستائر الفاصلة بيني وبينه حتى أنعم بقليل من الراحة، أو أبعد قليلاً عن مجال جاذبية هذه الجثة المنتفخة. في داخلي كنت أطرد شبح هذه الجثة وامنعه من أن يدخل في جسمي، وأبحر في زورق روحي بعيدًا. كنت أشعر بهذا الجوار والأخوة في الأرواح. صمته وغيابه عن الوعي سبَّبا راحة لي، أكثر من جزعي لوجود جثة منتفخة على بعد ثلاث خطوات من سريري. ولكن صمته أيضًا خلَّف فيَّ رغبة عارمة في الاستسلام. كنا نشد أزر بعضنا البعض بدون أن ندري، ونكتب عقد بقاء بدون أن ندري، كوننا نعيش في وقت إضافي واحد. بعد هذا التحول الحاد في حالته رأيت ابنه وابنته أكثر هدوءًا، فقد بان الشاطئ الآخر الذي ستجنح عليه سفينة الأب. ظلت الابنة تلقن لهذا الوعي الغائب، ولكن بحماس أقل، آيات مخلوطة بالبكاء والنشيج، أما الابن فقد شملته حالة سكينة باردة. كان الابن عند مروره بسريري يلقي عليَّ التحية ويشير بيده وهي مضمونة علامة على التضامن والتعاضد والتشجيع ((شد حيلك))، أو ((اصمد)). ناديته، لم أكن قادرًا على الكلام، بصعوبة امتدحت سكينته. تلقى كلامي وهو منكس الرأس، كأنه يستمع لحكيم على وشك الموت. بالرغم من فارق السن القليل بيني وبينه، فإن مجاورتي لسرير والده، وقربي من الموت، منحاني حكمة ومقامًا عاليًا في نظره، يجعلانه يقف أمامي كأنه قائم في صلاة طويلة أمام محراب مقدس، لا يمكن أن يُظهر فيها إلا استسلامًا. ربما سأظل محفورًا في خياله، كوني كنت مجاورًا لهذا النصب التذكاري الذي كان يجسده الأب. لا يتوقف فقط الإحساس بالألم على الوعي به، هناك من يفقد الوعي، كجاري، ولكنه

لم يكف عن الأنين، والتأوه، كانَّ للألم ذاكرة خاصة تظل مضاءة حتى لو أظلم الجسم أو حُجب الوعي. ذيل السحلية بعد أن ينفصل عن جسمها. الألم كيان منفرد، يتنقل من جسم لآخر، وتكبر دائرة معارفه ومقتنياته وعلاقاته، ويتسع فهمه للأجسام التي يحل بها، ولا يتورط في حبها، بل يظل وفيًّا لمهنته ولمعجزته في تصدير الوجع. إنه كيان له عقل مستقل بداخله. بالرغم من أن جاري لم يعد مدركًا لأي شيء حوله، إلا أن الألم ظل هو من يقوم بتثبيت حقيقته، هو علم الوعي الطافي فوق مياه سوداء. صارت ((آه)) هي من تمنحه الهوية، التي بدورها صارت مؤرجحة يتلاعب بها الوعي. كلمة ((آه)) يحفظها عقل الألم جيدًا، أو لسانه. وبعد عدة أيام غاب هذا الصوت، أو تكور في زاوية داخل النفس، ونسي جاري الأبجدية تمامًا، وصار تأوهه عبارة عن حشرجة متواصلة لروح تقف على الحافة. ولم يعد يتعرف على أيٍّ ممن حوله، ولكن كيان الألم، وعقله المستيقظ، ظلا يرسلان إشارتيهما من وراء وعي هذا الرجل، انتفاضة هنا أو هناك، هزة إصبع، دمعة متدحرجة، كلها تحبس تحتها أطرافًا متفحمة لوصلات كهربائية. ربما هذا الكيان هو أحد مكونات اللاوعي. هناك يسكن الألم بكل ثقله وقدمه وتجاربه، ويتحرر بدوره من كل أشكاله اللغوية والتعبيرية، بعد حجب العقل، ليحكي لنا عن كيف كان ميلاده.

أحيانًا كنت أحس بنفسي كلوح معدني حساس يحول طاقة ذبذبات الأصوات من حوله إلى حركة، هذه الحركة كانت موجهة لخدش روحي، كانت أي حركة غير متجانسة تصدر من المجال الذي أجلس فيه كأنها تحك في هذا اللوح وتخدشه كسنٍّ معدني على زجاج يرسم

وشمًا تلقائيًّا من الذاكرة. حديث الممرضات العبثي حول خلافاتهن الشخصية، أو لخبطة النوبتجيات، أو قلة الرواتب، وهن واقفات أمام سريري ليلًا، أو أن أرى إحداهن، أو احدهم، ينظر لي ببلاهة أثناء عبوره من أمام سريري، كأنه يتعرف على حيوان منقرض، أشعر عندها بأنه طبع أثرًا غائرًا على هذا اللوح الحساس. كان مجال إحساسي ونفوذ هذا اللوح واسعَيْن يجوسان في الليل الخارجي كلاقط أصوات أو كغرفة كاميرات داخل أحد البنوك. في أغلب الأحيان كنت أطلب من الممرضات أن يطفئن أنوار الكشافات المدفونة في السقف فوق سريري. الظلام النسبي كان يشعرني بخصوصية ما، بحدود يمكن أن تستوعب إجهادي النفسي؛ الظلام كان أحد هذه الحدود، كنت أريد أن أجلس في غرفة نفسي ذات الإضاءات الخافتة. بين وقت وآخر كنت أشيح بوجهي ناحية الجهاز المعلق فوق رأسي مباشرة، والذي يقوم بقراءة النبض، بجانب جهاز رسم القلب، وأجهزة أخرى بعدادات إلكترونية، تُضاء وتُطفأ ذاتيًّا. في البداية تتضخم قراءاتها ثم تعود لعقلها، كأنك في كابينة القيادة لطائرة. بالفعل كنت في كابينة قيادة، ليس لطائرة، ولكن لكبسولة خرجت من مجرة الأرض، وظلت عالقة في الكون. هذه العدادات التي تزغلل عين الرواد هي الشيء الذي يربطهم بالأرض التي أتوا منها. في الليل كنت أضطر لبذل مجهود مضاعف حتى أرفع بصري وأصل لهذه الزاوية صعبة المنال. لو أمكن للبصر أن يدور ويسبقنا ويلتف كصاروخ موجه لمؤخرة طائرة! أصبحت قراءات النبض المتذبذبة باستمرار، صعودًا أو هبوطًا، تشكل لي أهمية وتتحكم بشكل عام في لون نفسيتي. أغلب الوقت كانت تحصره في اللون الأزرق الداكن، المائل للبنفسجي، بتراثه الحزين. كلما انخفضت

القراءة عن مائة، وهي الحد الأقصى، أشعر بتحسن نفسي، بشفافية طائر، قبل أن أشعر به في جسمي. ولو زادت على المائة تسوء نفسيتي، وتزداد دكنتها، وأنتظر هبوط التدريج. كان الخطر مثبتًا على لوحات إعلانية رقمية. ثم بدأت قراءات أخرى تدخل في دائرة اهتماماتي اليومية، وهي من عادات أصحاب الأمراض المزمنة الذين يحكون للطبيب في جلسة واحدة تاريخ مرضهم بدقة فائقة. بدأت أسأل عن نسبة البروتين في الدم، وثاني أكسيد الكربون، وغيرها من القراءات المتخصصة؛ برغم جفاف الرقم وصرامته، إلا أنه يحمل دفئًا، أو ثلجًا، تبعًا لما يتضمنه من أدلة على الشفاء أو المرض. لم يكن هناك رقم ثابت، التذبذب جزء من حياة الأرقام والمستشفيات. أحيانًا كنت أتخيل جهاز القراءة وتذبذب أرقامه على الشاشة مثل قنبلة زمنية على وشك الانفجار تبحث عن رقمها السري الرابح، ككرة الروليت، أو كساعة توقيف في سباق طويل. كان السباق في غرفة العناية المركزة في غاية التجريد، لم يكن هناك غيري على هذا المضمار، وبدون أي جمهور يتهلل وجهه عند الفوز، أو ينكس رأسه عند الهزيمة؛ أي فوز في هذا السباق هو خسارة للحياة. ربما كان يشترك معي، عبر (التليباثي)، زملائي في الغرفة، وبدون أن نصرح بهذا، إلا بداخلنا، وبتلك الإشارات في تلافيف عقولنا التي غمرها المرض بالمياه. كان جاري في سرير رقم واحد عدَّاءً متميزًا باتجاه الموت، وبالأرقام القياسية التي منحته صدارة السباق باتجاه خط النهاية، لذا كنت لا أريد منافسته، ولا أحب أي مقارنة تجمعني به. لأني كنت أغْيَرَ على حياتي، ومازلت. أنت في سباق، تريد من الحظ أن يلعب دوره، أن تدفعك يد خارج السباق، لو كان المضمار الذي تجري عليه مُعبَّدًا بالتراب الأحمر للموت. أو يقف

الحظ بجوارك مرة أخرى، ويجعلك تكسب، لو كان المضمار الذي تجري عليه مُعَبَّدًا بالتراب الأحمر للحياة، عندها تنتظر تلك الدَّفعة من يد خارجية لتتجاوز خط النهاية، وتتفوق على جارك، أن تلعب في عداد الأرقام لتكون في المستويات الآمنة. بالطبع هناك أحد غيرك يموت، وأنت تنجو، وهو الاختيار الذي لا يتحمل التضحية.

٦

تطورت علاقتي بالطبيب الذي كان السبب في كل هذه المعاناة المجانية. صارحني في اليوم التالي قبل إجراء العملية الثانية أنه كان خطأه، ويجب أن يصححه مهما كان الأمر. لم أفهم كلامه فقد كنت لتلك اللحظة أعتقد أن سبب هذه المضاعفات التي أعاني منها هو البنج فقط. حتى ذلك السائل الأصفر (الأوكر) الذي تقيأته ولطخ جدران غرفتي كان أيضًا بسببه. كان اللون صافيًا كأنه مستخلص مباشرة من مصدره النباتي. كنت في مضيق نفسي أبحر ولا أعرف تمامًا ما معنى كلمة ((خطأ))، وسط هذه المياه شديدة الزرقة. لم أتوقع أن يأتي خطأ بهذه الفداحة من الآخرين، بل من نفسي، من شيء كامن فيها، ليس بذرة فساد، ولكن هذا التوق للأمل، واتساع جنبات الوجود الذاتي، كانا يستثيران كل ما هو ضدهما. عند دخول منطقة الخطر تتغير معادلة النفس المستقرة، وتشرع كل مكونات النفس لتمارس عملها ووظيفتها بعد عطلة طويلة. رغبتا البقاء والفناء تتقاسمان مساحة هذه المعركة الوجودية. كانت شخصيته تحيرني قليلًا، دفعتني ودفعت سلوى زوجتي إلى أن نثق به حتى النهاية، بالرغم من خطئه الأول القاتل. قالت لي سلوى إنه أثناء مناولتها له

لأتعاب العملية الأولى الفاشلة لمحت في عينيه بريقًا ونظرة مُستلبة مصوبة لرزمة الأوراق النقدية في يديها، طبعًا كان هذا قبل أن تظهر نتيجة هذه العملية الفاشلة ومضاعفاتها، نظرة في غير مكانها ولا أوانها. كان يترك رسالة لها شفرة خاصة في كل تفاصيل سلوكه وحركاته وإشاراته. كنا، أنا وسلوى، نتوقف قليلاً أمام هذه الإشارات العفوائية للعين والأصابع. لم يتعود أن يتستر على هذا الضعف الكامن في شخصيته. من الصعب أن يخفيه لأنه لا يراه، وتأثيراته مخفية وسط أضواء النجاح والدعة. اتفقنا، أنا وسلوى، بعد خروجي من المستشفى وحوارنا حول ما حدث، ونحن جالسان على كنبة المساء، أمام التلفزيون، في بيتنا، في إحدى الأمسيات، بعد أن مر موسم خماسين الخطر، نحصي الأشخاص الذين عاشوا معنا تلك الفترة الحرجة في حياتنا؛ اتفقنا أن الطبيب يبدو شخصًا مترددًا، هناك هزة أو لفتة أو تعبير في غير مكانه، أو فلتة لسان تكشف تمامًا هذا الشخص الآخر المتردد تحت البالطو الأبيض الواثق. ربما رحلة عصاميته، وخوفه المتأصل من الفشل، هو الذي أنقذني وجعله يعترف بهذا الخطأ ويصححه. قال لي إنه لم ينم طوال ثلاث ليال بسبب خطئه هذا، بدأت أتعاطف معه، لا أعرف السبب في تعاطفيً هذا. قلت له وأنا بين الصحو والنوم:

- أرجوك ما تسيبنيش.

كنت الضحية التي تجري وراء آثار القاتل كي تستعيد الحياة التي أخذها. داخل هذه اليد المرتعشة، التي كانت السبب في هذا، كانت

رائحة حياتي ما زالت عالقة، ولم تبرحها بعد. يده لا تزال تحتفظ بهزات رحلة نجاحه. الجزء الخاص بالفشل والخوف منه كان مسؤولاً عن رعشة اليد التي ثقبت أمعائي. وأيضًا جاء شفائي، من الجزء الخاص بالنجاح، من إحساسه بالذنب وتقديره له، فأي نجاح وراءه يد مهزوزة وذنب خفي، وقد تستمر هزتها طويلاً أو تسكن معها. السم والدواء اجتمعا في يد واحدة. عندما كان يمر على سريري كان يفرِّق تردده ووساوسه على الممرضات. يعيد الشيء، والخطوة والكلام عدة مرات. يريد أن يتأكد أو يؤكد له أحدهم أو إحداهن، أثناء تكرار ومد زمن الكلام، صحة وصواب خطوته، مهما كانت بسيطة. مثلاً صحة نزع الخراطيم التي كانت تتدلى من بطني في هذا التوقيت، أم الانتظار للغد، أو نزع أنبوب القسطرة، أو تردده في عدد أكياس البلازما التي أحتاجها يوميًّا: ((عشرة، ماشي تمانية، بس لو فيه حاجة كلميني))، موجهًا حديثه لرئيسة الممرضات. يترك طرفًا ساخنًا ليقبض عليه غيره. كان لكل قرار مساحة تردد واسعة يتحرك فيها. كان يعيد التغيير على الجرح الذي قام به زميل له منذ دقائق قليلة لشكِّه في مقدرة زميله. كان هناك وسواس استيقظ في عقله وأخذ يطارده. كنت ألاحظ تردده هذا، كأنه يريد لأحد أن ينوب عنه في أي قرار، ويقوم بخطوته القادمة ويتحمل عنه ذنب الإخفاق أو الفوز أو الخسارة. ولكن سرعان ما يفيق، كأنه كان في دوامة غبار تسبق أي قرار، ويتخذ قراره الحاسم بعد أن كان يتكلم ويهذي بكلام الشخص الآخر المتشكك. دائمًا هناك بخار مخزون من الوساوس يريد أن يخرج قبل أن يبدأ. صارحته سلوى بأن ضعفه مكشوف. صدامهما الداخلي والصامت حولي جعل هناك مساحات مكشوفة في كل منهما للآخر. كان يكلمني باستمرار

عن مدى حب سلوى لي، وتحمُّلها وتعبها من أجلي طوال لقاءات الصباح الباكر، والمساء المتأخر، وساعات الانتظار خلال ساعات النهار خارج غرفة العناية. عندما قالت هذا في جلسة ودية في عيادته بعد خروجي من المستشفى نتذكر تلك الأيام الحرجة، تكهرب وجهه لهذه الملاحظة بهذا الوضوح، وعندما ارتاح لتوصيفها للجملة بعد شرحها منها ومني، وافقها متعللاً بحجم المسؤولية التي كانت ملقاة عليه. لقد كان مسؤولاً عن الخطأ، ولكنه أيضًا كان مسؤولاً عن النجاة، الخطوة الأولى كانت قدرية، والخطوة الثانية هي تصحيح لقدر كان نافذًا، لولا تدخُّل يد إضافية لتصحح المسار.

لم تشأ سلوى الاستجابة لنصائح بعض الأصدقاء بمقاضاة الطبيب والمستشفى على هذا الخطأ القاتل. فقد كنت بين أيديهم، وأي تهاون أو ثرثرة قد تضيِّع الوقت والفرصة في النجاة، ولكن أشعر حتى الآن بغصة في روحي من هذا الطبيب، لا يحلها مقاضاته، ليس لهذه الدرجة، ولا بهذا الشكل أريد أن أقتص منه. لا أريد عقابًا سجاليًّا بهذا المعنى، ولكني أريد محاسبته على وأده إحساسه بالذنب سريعًا تجاهي، العقاب لا معنى له هنا، عندما يجتمع القاتل والقتيل ويكشفان عن أنهما كانا أداتين مُسخرتين لا إرادة لهما. لقد كان يعتمد أن ينسى ويتناسى ما حدث معي. أسبوعان بعد انقطاعي عن الذهاب لعيادته بعد خروجي من المستشفى، وانقطع اتصاله بي، وعندما ذهبت مرة مضطرًّا لعيادته، كان مرتبكًا، كأنه غير مستعد لمن يذكره بما حدث. كان هو سبب لحظة فارقة في حياتي، ربما تغيرها كلها، وتلون نفسيتها بالحداد حتى النهاية، أما هو فلم يشأ أن أكون لحظة فارقة في

حياته. لقد تلاعب بحياتي لهذه الدرجة، ولم يضعها في مكانها وقدسيتها. لقد استهلك الإحساس بالذنب حتى لم يعد يؤتي أثره لمدى طويل. كنت أشعر بأننا تشاركنا في مصير واحد، لا تُمحى آثارنا عليه بسهولة. في أحد الأفلام التي تحكي تجربة سقوط طائرة، يعيش اثنان من ركابها الناجين، رجل وامرأة، تجربة الموت بعد تحطم الطائرة ودخولهما هذا النفق الأخروي الطويل قبل أن يخرجا وكل منهما يحمل وشمًا على روحه. لا تستقيم حياتهما العادية بعد عودتهما إليها، لقد غيرت تجربة الموت من إحساسهما بكل ما حولهما، ولا يجدان راحة إلا في التواجد معًا، كي يعيدا لحظات الخطر التي تحولت إلى رابط جديد بينهما أكبر بكثير من كل الروابط العائلية، مادة الوجود التي لا تتدفق إلا تحت ضغط الفناء، جاذبية الموت الخفية التي تقرب بين أجساد عاشت تجربة واحدة حدية. من ناحيتي كنت أشعر بهذه الرابطة الخفية مع الطبيب، ولكنه من كثرة دخوله إلى أرض الخوف هذه وخروجه منها، فقد الإحساس بتلك الرابطة التي يجمعها الموت، لأنه لم يعش برودته، بل كان مراقبًا لها، يضع مشرطه فيها. لقد تشاركنا مع الله، حسب أعمارنا، جزءًا من الطريق الطويل للخليقة، سلسلة الخلود التي تربطنا معه. نحن الأثر المتجدد للخلود.

في سنوات الثورة، كانت هناك إحباطات عامة وشخصية، ولكي يتم التوفيق والتنسيق فيما بينها، من أجل استمرار الحياة، كان لا بد من مكان يخزن به صافي هذه الصراعات الوجودية التي كانت تصل لنقطة الصفر باستمرار. هذا التغيير الذي كان يحدث في مصر خلال سنوات الثورة أخذ منا جميعًا طاقته، وتركنا هشين لا نملك أي دفاعات عن

أنفسنا تجاه التزامات وجودنا الشخصي. بدأت تتكون لديَّ مشاعر تنتقص مني، لم أعهدها في نفسي من قبل، بدأتُ أدخل في سلسلة مقارنات، أو سجالات، أيًّا كان الطرف الآخر فيها، سجالات كانت تؤدي دومًا لخسارة ذاتية، لأن أعمل جاسوسًا ضد نفسي. بدأت معادلة الحياة تختل من جديد وفقدت النفس مكان اتزانها. ليس هناك عهد أبدي للتوازن أو النضج. في كل مرحلة من مراحل الحياة يجب أن يتم تجديد هذا العهد وتعديل شروطه بينك وبين نفسك. لا توجد ((فاوستية)) أبدية مخصصة فقط للحفاظ على الاتزان. دائمًا، ما ينتع هذا العهد عن موضعه هو هذا التناقض الحاد بينك وبين شروط حياتك المتغيرة، وعدم الاتساق، وعملك كجاسوس ضد نفسك، إلى أن تقبض عليه وتسلمه لحبل المشنقة. بدأ الشعور بهوة عميقة تتكون في داخلي، هذا الشرك الذي ستسقط فيه نفسي أثناء العملية، كما كنا ننصب شراكًا في الحديقة ونحن صغار ونموهها بالأعشاب. ذلك ((الشَّرَك اَلذاتي)) الذي نصبته لنفسي وموهته أيضًا بأسباب وجيهة من صُلب الانشغال اليومي، كأنك تشتغل بأعمال الإبرة لتخز نفسك، حتى تدمي أصابعك عندما تفرغ من هذا الرداء الصوفي الذي تنسجه لجثة منتظرة. جاء الطبيب، عبر هزة يده الخطأ، ليزيح هذا الغطاء العشبي، وتبدأ رحلة السقوط عبر مدرج الموت المشعب، ثم الصعود مرة أخرى على نفس الدرج. يبدو أنني كنت أجرب شركي الخاص، حتى أتعلم من نفسي، هذا المصل الذي يفرزه المرض الذاتي ويسبب المناعة. كنت أفرز من صلب نفسي مناعتي للموت، أو للسجال الحياتي الفارغ، أو للصراع من أجل نجاة متخيلة. الموت والنجاة قابعان خلف أي سجال مجاني أو تدنٍّ في أسلوب الحوار مع الحياة

أو الآخر. لشهور طويلة قبل العملية، وربما من بداية الثورة ووسط هزاتها المتتابعة؛ بدأت أشعر بالمستقبل، أخاف منه، وأرسم صورًا عديدة له أتملى في تفاصيل حياتي، أشاهد وأركِّز مع المسنين في الشارع وكيف يسيرون في مجرة حياتهم اليومية. لقد فقدت اتزاني مع المستقبل، فقدت شحنتي الخاصة التي كانت تحوله إلى سماء مكشوفة بالألعاب النارية والمفاجآت. دائمًا كان المستقبل موجودًا، ولكنه منسي، وسط الموجات المتلاطمة للتذكر، أصبح في لحظة مجرة مظلمة وسماء خاوية من النجوم. بدأ يَسقط غشاء التفاؤل الذاتي، ذلك القناع الذي تهرَّأ من كثرة استعماله، أو فقد صلاحيته، وكان يحتاج لتجربة أقوى في الحياة لتمنحه دورة جديدة من إحدى دوراتها، ونسخة جديدة من إحدى نسخها. بدت ثقوبه واتسعت، ولزم إعادة رتقه، بعقد جديد مع الحياة. كانت لحظة العملية والسقوط ((ترانزيت)) بين نفاذ مدة سريان الوعد الشخصي، وبين إعادة ملئه بحلم جديد. الشرك الشخصي كان الرابط بين حياتين. ربما أحد ملامح هذا الحلم الجديد أن الموت لم يعد عبئًا، ومع الوقت ستسقط كل المعادلات التي أنشأها الخوف منه في نفوسنا. معادلات التفوق، أو التعالي، أو التميز، ستسقط كل تشعباتها الاجتماعية، ليشق الوجود مساره وهو يدفع بأكتافه كل من يعوق التقدم، ويوسع هذا المسار الحر. كانت هناك تجربة تعتصرني، امتحان أكبر بكثير من مجرد إجراء عملية، أهميته أنه جاء فجأة بدون تحضير، هذا الامتحان وفرت له براءة الصدفة مناخًا مناسبًا حتى يجوب كل أراضي الأزمات في نفسي بحثًا عن الأحجار التي تعوق مرور المياه في مسار نهر الوجود. كانت تجربة المرض تحاول أن تفصل عن روحي هذا الفائض غير المتسامح

من المياه. هناك مكان في نفسي كان يتجمع فيه هذا الماء غير المتسامح، وعلى مدى زمن كان هناك تسريب في مادة الوجود نفسها، في هذا النسغ الداخلي، ولكني لم ألحظه. حتى تحول إلى بحيرة اكتشفتها الجراحة، مع ما اكتشفت من تلوث داخل جسمي. كان الطبيب مندهشًا من سرعة انهيار الجسم وتدهور حالتي، وغير مصدق أن خطأه هو السبب الوحيد. كانت تلك البحيرة من الماء غير المتسامح هي أحد أعراض تعب الضمير، والذي اكتسب في هذه الحالة سيولة الماء وقدرته على إذابة الصخور.

فريق النوبتجية الليلة كانوا يتجمعون في الغرفة الزجاجية التي تقع على يسار سريري. بها ثلاجة حفظ الأدوية، وبالمرة كانوا يحتفظون فيها بالماء المثلج وببعض الوجبات التي كان يأتي بها أحدهم أو إحداهن. كانوا يختلفون في نوع الطعام الذي سيتناولونه في وجبة العشاء المتأخر. كل يوم نفس الخلاف والتأرجح بين كبدة وكشري ((أبو كمال))، أو فول وفلافل ((أبو ربيع))، أو باذنجان وبطاطس ((الشاطر)). اختلافهم حول نوع الطعام كان مثل اختلافاتنا في بيوت أهالينا، وسؤالها الخالد عن طعام الغد. طوال أسبوعين لم يدخل أي طعام أو ماء في فمي، طعامي وشرابي كان تلك القطنة المبتلة التي كنت أمررها على صحراء شفتي المتشققة، ثم أسحبها سريعًا خوفًا من أن أرتوي أو تتسلل قطرة منها حيث الجرح الذي لم يلتئم في الأمعاء! كنت أسمع كلمات مُعذَّبة تلقن الطلبات على الطرف الآخر في المحل الصاخب بالجوعى وبالحياة: ((علبة كبدة باتناشر جنيه، اتنين شاورمة، خمسة فول محبش، طعمية حراقة)). كل هذه الأسماء

كانت تجعلني أنهار بدون ألم، أستدعي رائحة كل صنف من أصناف الطعام المذكورة، تعبر على أنفي وخيالي بكل حمولتها النفسية في الذاكرة. بعد العشاء وتناول الشاي، ينسلون لمخابئ وزوايا لينناموا، ولا يظهرون إلا في السادسة صباحًا، وكل منهم يحمل في يده البطَّانية التي تغطى بها، وبيده الأخرى يخفي تثاؤبه. لا يتبقى من فريق النوبتجية الليلية سوى اثنين يقومان بالتمريض على جميع الأسرَّة، وغالبًا يتم اختيارهما من السيدات. خلال هذه الساعات كنت أخشَى أن تباغتني أزمة من أزمات ضيق التنفس. أحاول بشتى الطرق أن تمر هذه الساعات وأنا مخدر أو غائب عن الوعي، كنت أتعمد تأخير جرعة المخدر للحادية عشرة، وللأسف كان تأثيرها يقل يومًا بعد يوم، وتبهت ((فانتازيا)) الرحلة اليومية التي كنت أتجول فيها بسريري في عوالم خيالية وملونة بألوان المحاليل الصفراء والخضراء والزرقاء، وأجوب فيها، بوعيي الباطني، تلك الحواف النفسية التي كنت أخشى الوصول إليها بالمخدرات أو الكحوليات في حياتي العادية، لأني كنت أريد أن أبلغها بخمر ذاتيٍّ معتق. كنت أستيقظ ليلًا لأفاجأ بهذا الصمت، وبصوت شخير جاري الذَّي يُبث من القبر مباشرة. أثناء تناول فريق النوبتجية لوجبة الطعام ونثار أحاديثهم، كانت النبرة العائلية لأصواتهم تصل إلى أذنيَّ المجهدتين ضعيفةً ومحملة برذاذ الأفواه الممتلئة بالطعام. كنت ألتقط تلك الروح الأليفة الساخرة التي أراها في مثل هذه التجمعات الشقيانة، كصحبة العمال أمام وجباتهم البسيطة المكونة من البصل والجبن وتحت برودة خرسانات العمارات الجديدة، وصحبة أطفال الشوارع ونومهم على مقاعد محطات الترام، أو تحتها، تحت بطانية واحدة، هذه الصحبة التي تتجمع كتعويض

طبيعي عن أشياء ضاعت أصلاً، هذا الصنف الخاص من الطعام المطبوخ بزيت هذا الشيء الضائع! ألفت هذه الصحبة الليلية وثرثراتها، وكما كنت أترك خيالي يتسلل في دهاليز المستشفى، كنت أذهب معهم للحقول والبيوت البعيدة التي أتوا منها، للغرف الباردة المدهونة بلون الزهرة الأزرق، والمزينة بصور النجوم، لصدق، أو افتعال، تلك المجاملات التقليدية والقفشات التي يتداولونها فيما بينهم على هذه المائدة الليلية.

كان لإبراهيم الممرض جسم ضخم، بل أضخم من كل الأجسام وأشباحها التي كانت تمر أمام سريري في الليل والنهار. كانت لشخصيته ليونة ريفية امتدت لمخارج بعض الكلمات، وأكسبتها تلك التضاريس اللينة ذات الاستدارات الواسعة، وهي السمة المكررة في كل الممرضين والممرضات الصغار الذين جاؤوا من قرى دمنهور وكوم حمادة، والمبعثرين في كل زوايا المستشفى: تتميع الكلمة في أفواههم كأنها تحولت إلى كلمة مصهورة لم يكن لها قبل قالب صوتي تعيش فيه. كنت أسمع غناء إحداهن في الليل، كأنه حداء في صحراء واسعة؛ كانت الممرضة صاحبته تكرر كل يوم في نوبتجياتها هذه المرثية الحزينة ذات الصوت الخفيض والإيقاع الخافت. كنت أرى الممرضة كقائد لنعش يسير في الخلف، وبداخله آذان مشدودة لهذا الصوت. الغريب أنني عندما صارحت الممرضة سماسم بأن صوتها جميل، أنكرت أنها كانت تغني، وقالت إنه ربما صوت الراديو الذي يحمله معه إبراهيم في النوبتجية! كنت أتقبل هذا النوع من الأخطاء الشخصية بتسامح، لأنه من الصعب، من زاويتي هذه، أن تتوافق

ملاحظاتي مع ملاحظات من حولي، ولكني كنت متأكدًا من هذا الصوت الجميل والحزين الذي كنت أسمعه في الليل.

لمرة واحدة، وهي المرة الأولي، رأيت إبراهيم يعمل مثل الحمار، طاقة لا نهائية تملأ ساعات نوبتجيته بالحركة الدؤوبة، تتناسب مع هذا الجسد الذي تم توظيفه كحمَّال لتلك الأجساد المتهالكة على الأسرَّة، والتي يزيدها المرض ثقلاً ورسوخًا في الأرض التي تمثل لهم الحَياة في هذه اللحظة. دائمًا يداه مبلولتان كسيدة منزل تنسى قطرات المياه وهي تتساقط من أطراف أصابعها بينما هي مشغولة بالحديث أو بالفرجة على التلفزيون، بالإضافة لحبات العرق التي تتجمع سريعًا على جبهته وتتدحرج على سطح جلده الثخين والأملس، كأنه آت من كوكب مائي. كان له ذقن شديد السواد، لا يهتم كثيراً بحلاقته. استلمني إبراهيم في اليوم التالي لدخولي غرفة العناية المركزة أثناء نوبتجية عبد العظيم. كان أول لقاء بيننا، بذل فيه مجهودًا أشعرني بالخجل من قلة حيلتي، بداية من مرافقتي للحمام عدة مرات، ودلق كميات كبيرة من مياه شهر يناير على جسمي الساخن، وتغيير أكياس البلازما والمحاليل الأخرى، ثم قياس الحرارة كل ساعة. كنت مستجدًّا في عنبر العناية، ولا أعرف بعد فداحة ضعفي، وحجم واجباتي المفروضة عليَّ، ومدى اعتمادي على الآخرين، فكنت أخجل من أقل مجهود يبذله أحدهم لي. مع الوقت بدا أن قائمة الواجبات طويلة جدًّا، ولا بد من أن أغلق هذا الباب النفسي الموارب أمام الخجل والتأقلم معه. عادة تنتاب المريض وساوس عدة أثناء استلقائه الإجباري على السرير، مصوبًا عينيه للسقف ولأضوائه الصناعية،

يخشى من أشياء كثيرة قد تبدو تافهة في عين الآخرين؛ تلك الحوارات المهموسة، العيون المصوبة بدون داع من المارين عرضًا أمام السرير، خيوط المؤامرة التي تتجمع لتثبت بأنك المقصود بكل هذا الهمس، وأن هناك شيئًا يخفونه عنك. تحاول أن تكشف النقاب عن هذه المؤامرة. طبعًا الممرض يكون مدربًا على التقاط هذه العين السارحة، وتسكين هذا الوسواس وتطييب خاطره حتى يهدأ. صدقت ساعتها أن إبراهيم هو الدليل المناسب لهذا النوع من الوساوس.قبل ميعاد الزيارة وقدوم سلوى، وباقي الزائرين، كان يجهزني كأني عريس، يصفف شعري الطويل ويغسل وجهي ويحلق ذقني، وكما قال لي، حتى أكون في أجمل صورة أمام زوجتي والزائرين. شعرت بامتنان شديد له. لاحظت أنه أثناء مكوث سلوى كان يمر عدة مرات من أمام سريري، كأنه يمر صدفة، ليطمئن على مريضه، ثم يبتسم ابتسامة لها معنًى من أيدينا المتشابكة طوال ساعة الزيارة. هذه اليد كانت الأنبوب الذي ينقل لي دفء الحياة في صورتها الخام. نجح إبراهيم في أن يصدِّر للآخرين، الذين لا يعرفونه جيدًا، شخصية المتفاني في عمله. بالطبع أغلبهم سيكونون من المرضى المؤقتين، الذين لن تستنفد مدة إقامتهم في المستشفى هذه الصورة. مع توالي الأيام بدأت شخصية أخرى تتكشف، شخصية الموظف اللامبالي، وخبا وهج الشمعة التي تحترق، والذي رأيته في أيامي الأولى، وربما أيضًا بدأت أنتقل من مدار الآخرة إلى مدار الدنيا، وأرى الأشياء والمشاعر من حولي بدون أن تتجمل بالوهج الأخير للغياب. كما كنت في أيام المستجدين الأولى، كان في قلبي فائض امتنان للجميع يمكن أن أوزعه بدون حساب أو دقة، وأيضًا كنت أحمل أكياسًا منتفخة عن آخرها من

الدموع المحبوسة التي تنتظر أي لحظة ضغط بسيطة حتى ترتجف العينان ويختنق الصوت وتنفتح صمامات الأسى. صارحت إبراهيم وهو يغير لي أحد محاليل ((الكانيولا)):

- إنت شخص متفاني يا إبراهيم.. للدرجة دي إنت بتحب شغلك؟

لمحت ابتسامة خبيثة على وجهه، لم أفهم مغزاها في حينها، وعقَّب بكلام إنشائي بأنهم جميعًا متفانون في عملهم. بعد هذا الحديث بيوم أو يومين، كان إبراهيم يتجنب أن يأخذ سريري في نوبتجيته، ربما تجنبًا لهذا الكم من الإرهاق، وكلما ناديت عليه تباطأ في الاستجابة، أو تجاهل النداء تمامًا. بدأ يتكشف لي مدى سذاجة رأيي فيه، أحسست بخذلان من كشف حبه متسرعًا، حتى في غرفة العناية يمكن أن يتم تجاهل نداء مريض، طبعًا بشكل لا يوحي بالتجاهل، كأن لسان حاله يقول:((أنا برضه إنسان وعايز أرتاح)). بدأت تتكشف تقاليد وسرايب ودهاليز وأختام تلك المصلحة الحكومية التي يعمل فيها إبراهيم. المستشفى مكان تصفية حسابات لا دخل لك بها، كل الممرضين والممرضات يشعرون بظلم لأن المرضى يتحاملون عليهم ويطلبون منهم المستحيل ولا يقدِّرون إنسانيتهم، إحداهن قالت لي هذا صراحة، ونظرت لي مليًّا كأنها تنتظر مني أن أجيب بالنيابة عن طابور طويل من المرضى. تحول المستشفى لمكان عاديٍّ، وليس مكانًا استثنائيًّا، يقع على حافة خريطة الحياة، كالقبائل الغجرية، ولا يخضع لقوانين المدينة؛ لا يحتمل السجال أو تصفية الحسابات إلا بين الحياة والموت. في إحدى المرات أبديت اعتراضًا واضحًا لإبراهيم على الطريقة التي يأخذ بها عينة الدم من الوريد الموجود

تحت رأس المثلث ما بين الإبهام والسبابة، كانت وخزة الإبرة التي يسحب بها الدم تسبب لي الماً شديدًا، وعادة ما كان يكرر محاولاته عدة مرات حتى تستقر على الوريد المطلوب. نمَتْ عندي حاسة للوخزة الصحيحة التي تصل لهدفها. كانت كمية الدم المسحوبة تقسَّم على ثلاثة أنابيب تذهب إلى المعمل كل صباح. اعتدت على رؤية دمي معبأً في أنابيب محكمة الإغلاق. كانت الوخزة تسبب لي ألماً مبرحًا، ولكني اعتدت على مقياس أعلى للألم. الألم كان يأتيني كمفاجأة، لا أتوقعه إلا ويكون قد عبر. وخزة الإبرة كانت تخلف أزرقاقًا في الجلد ظل معي لفترة طويلة بعد خروجي من المستشفى، بالإضافة للازرقاق الذي سببته ((الكانيولا)) في رقبتي، و((كانيولا)) المحاليل في سطح يدي اليمنى وباطن ذراعي اليسرى. هذه العلامات شكلت مسارًا، مسار الأزرق، المائل للبنفسجي، بتراثه الحزين. كان إبراهيم على وشك أن يبدي تبرمه من اعتراضي على الألم الذي يسببه لي، كعلاقة بين بائع وزبون يبدي تبرمه من سلعة ما، وأخذ يكرر استفهامه من اعتراضي كأني أتكلم لغة أخرى، طبعًا ليؤنبني عليه بشكل غير مباشر حتى لا أكرره! في وجبات الطعام كان يتعامل مع مريض السرير رقم واحد كأنه معتوه. بالفعل كان الرجل يخرَّف في مونولوجه الشخصي الدائر طوال ساعات النهار والليل بدون توقف، وكان هذا بالنسبة لإبراهيم علامة تسمح له بأن يظهر له ما يبطنه من ضيق تجاهه، ويعامله كأنه طفل صغير، يجب تعنيفه وعقابه وتذنيبه ووجهه للحائط، أو كأجنبي يسبه بالعربية التي لا يعرفها. كان إبراهيم الطفل الضخم في هذا العنبر. سألني مرة:

- تعرف عمري كام؟

سأل ليثبت أن هذا الجسم الضخم لا يشير لعمره الحقيقي، أو ليبين لي أن هذه السن الصغيرة تحمل همومًا وأثقالًا فوق طاقتها، لم أجب عن سؤاله، وتركته ليجيب هو، فقد بدأت أسحب اعترافي بتفانيه، قال:

- اتنين وعشرين سنة بس!

لقد شاخ إبراهيم مبكرًا، واكتسب في بداية رحلة حياته زهق الموظف الحكومي.

في نفس التوقيت، السادسة صباحًا، الذي كان إبراهيم يسحب فيه عينة الدم، كان النظافة يقوم بتطهير الأرض بالكلور، الذي تعبق رائحته المكان، وبالرغم من أني لا أحب هذه الرائحة، لأنها بالنسبة لي رمز لنظافة سلطوية كانت تجتاح دورات المياه العامة في مدارسنا الحكومية، برغم هذا فإن هذه الرائحة كانت تحمل معها ذاكرتها الجماعية التي كانت تؤنسني لبعض الوقت. عامل النظافة كان يدور بين الأسرَّة، لا يلتفت لأي مريض حتى وهو نائم، كأن وظيفته ألاَّ ينظر لأعلى! يركز فقط في المجال الأرضي حتى مستوى معين. كانت له نظرة غريبة بعض الشيء، لا يوجه عينه للأرض بتاتًا حيث تدور يداه وتعمل، ولكن يوجه بصره في مستوى نظره، كأنه يستقبل بثًّا خاصًّا على شاشة عقله. يختلس النظرة خارج هذا المستوى ثم يعود سريعًا. لو تخيلت أن هناك منتقمًا صامتًا من الظلم فسيكون هذا اللقب من نصيب نظرات هذا العامل النائي بنظراته عن أن تشتبك بعالم المرض ووجوهه، كي لا يكون هناك أي ذرة تعاطف مع هذه الوجوه في

المستقبل عندما يفرغ فيها رصاص نظراته. كنت أخشى هذا الشاب ونظراته الميتة التي تتجمع في خزانة الانتقام.

٧

كان الموت كلطمة الموج على جدار. مع الوقت صار الجدار يحمل تدريجًا ونسخة طبق الأصل من هذه الموجات المتلاطمة، يحمل مقياسًا سابقًا على فعل الموت نفسه. بالتأكيد كلنا نحمل صورة لفنائنا، ولكن تظل هذه الصورة تشغل الخيال وتلعب في مساحة اللاوعي بدون حسم مادي لها، ولكن للمرة الأولى يصبح للموت مقياس مادي داخل الجسم. قديمًا كنت أستدعي صورة هذا الموت كي يريحني من حياتي، وفي الوقت نفسه لا تنتهي هذه الحياة، ثم أعيد الاستدعاء، حتى أصبح هناك إدمان لهذا الاستدعاء، صورة فناء انفصل عن مصدره، وأصبح مصدرًا للذة. الفناء لذة مفصولة عن أي مصدر للحياة. داخل أحد ممرات الذاكرة خطرت على بالي فكرة التخلص من حياتي، عندها شعرت براحة شديدة لا تفوقها راحة، كأنَّ أهم هرمونات السعادة مرتبطة بتذكر الموت، صار تخيل الموت، والسفر الوهمي لواديه، إحدى صور اللعب السيئ مع الذات، وأحيانًا الكذب عليها وتحوير مساراته. صارت لعبة الموت متشعبة وغير مكلفة، كأنها نزهة سريعة في حديقة الحي القريب. صار موتي قرينًا بتحققٍ ما، باستعادة شيء جوهري مفقود. الحب ضد الموت،

والامتلاك ضد الموت، حتى الأنانية ضد الموت، جميعها تضيف ولا تحذف من رصيد الجسم والوعي. أي إضافة، ولو في الطريق الخطأ، تضليل للموت على أن يصل، واستهلاك لقواه في مسارات غير أصلية. وعندما تحقق المشهد أخيراً بالنسبة لي، وأصبح للموت حياة حقيقية تتقاطع مع حياتي، وليست متخيلة، كنت قد نسيت كل المشاهد الطفولية القديمة، توارى هذا الجدار القديم وعلامات الأمواج المتلاطمة عليه، ربما غطته الطحالب في ذاكرتي وغُمر تمامًا في اللاوعي، وعندما دخل رسول الموت جسمي تشمم رائحة هذا التوأم القديم، وأخذ يبحث عنه. لقد توارت كل صور الموت القديمة من ذاكرتي وحلت مكانها صورة حديثة وقوية له.

أي رسالة يمكن أن يرسلها الموت للطرف الغائب؟ من هو الآخر بالنسبة للموت غير الفناء؟ رسالة الموت لا مستقبل أو قارئ افتراضيًّا لها، إلا الفناء، تسيح بلا عودة ككبسولة فضاءَ تائهة خارج نطاق الجاذبية. إنك ترسل رسالة لرسول الفناء الذي بداخلك، تستنهضه ليقوم بمهمته في محو وجودك، حتى وأنت عائش، تعيش بوجود ممحوٍّ، متلاشٍ، لأنك تعرف أن الفناء أحد أساسيات الوجود. ليست مشكلة شخصِّية ما عنيته، بل ميراثنا المؤلم من هذا الإرث الكبير للموت الذي نتقاسمه جميعًا، شئنا أم أبينا. كما يقربنا الموت من الآخرين كي نحتمي بهم حتى لا يأخذنا من وسطهم وينفرد بنا، هو نفسه يعزلنا بإرث متوارث فينا، هو نفسه الذي يستبعد وينفرُ من هذه الجماعة الخارجية، ويخطفنا فرادى، فعائلته هي عائلة الذوبان والتحلل والفناء لأي كتلة. كما يشيد الروابط بينه وبين الجماعة،

تنهض الروابط الجماعية في مواجهته، إلا أنه يقطعها كي يستمر، لأن داخله تتحقق الفردانية الخالصة التي ليس بعدها انقسام، والصورة المرتجاة غير القابلة للنسخ. راحة الانفصال النهائي والباتِّ. الموت مزروع فينا ومتأصل أكثر من أي شيء آخر، به نجاتنا.. به محونا.. به تحققنا!

داخل المستشفيات تكمن صورة من صور الوجود القديمة التي لم تتغير، تتكاثر تلك الحلقات البشرية، سواء للدرس أو التأمل، التي تلتف حول جسد ميت، أو على وشك أن يموت. يتعامل الموت مع أشكال جماعية، يسترد حسًّا قديمًا لطالما علق بثوبه، يعود لشكله الجماعي، ولمسؤوليته الجماعية في الحفاظ على توازن الحياة والألم. الجسد للتراب، والروح تدخل تلك الخزانة الحديدية لأرواح الجماعة، ثلاجة المستشفيات هي الرمز الحديث للمخزن الذي يحفظ أرواح الجماعة!

دائمًا ما كنت أفكر بهذه العين الأخرى التي تراقبنا وتراقب شريط حياتنا، تلك العين التي تثمن أبسط أشيائنا، بل وتضعها في مرتبة عالية من الاحترام والتقديس، لأنها تعرف قدرها، تلك العين التي تطل من وراء نافذة سجن أو نافذة مستشفى، أمام هذه العين تهتز الحياة وتميد الأرض تحت أقدامها، كوننا معرضين دومًا أن نشغل هذا المكان، وأن نرى بأعصاب وحدقة هذه العين، ونقف تلك الوقفة المتأملة وننظر تلك النظرة السارحة بإمتنان تجاه الحياة التي تجري وقائعها بعيدًا عنَّا. طوال فترة مكوثي في العناية المركزة كنت أبحث عن ذلك الشباك الذي يصلني بالخارج، أنتظر شعاع الشمس الذي يدخل لفترة محددة

وينعكس على عدة أسطح حتى يصل إليَّ خافتًا ونحيفًا، ليطمئنني بأن هناك حياة تشرق فيها الشمس وتغيب. الحياة في المستشفى مضاءة دومًا بشمس اصطناعية من تلك الأضواء القوية البنفسجية، شمس شفق الغياب، كنت أجد في الظلام غايتي وراحتي النفسية، وصورة حقيقية من صور الحياة، وليس تحت هذا الضوء الصناعي الذي كان يشعرني بأننا في معمل كوني للتحنيط. لأيام كنت هذا الشبح الذي يقف وراء الزجاج يتأمل نهر تلك الحياة الجارية أمامه، ويتمنى أن يمد يده إليها. في المستشفى أصبحت شبحًا حقيقيًّا، أتابع نوافذ الفيلَّا التي تقع أمام غرفتي، بعد خروجي من العناية المركزة، كانت بها شجرة كافور وحيدة، طلاؤها مقشر، ولم أرَ أي ساكن لها، فقط أرى حركة السجاد المفروش على سور البلكونة، هناك حياة تضوي حتى ولو كان أصحابها غير ظاهرين. كنت أتبادل معها صمتًا بصمت، هذا البناء الساكن كان جزءًا من مدينة الموت التي كنت أبحر في شوارعها.

رافقنا عم وليم لأيام أربعة في غرفة العناية المركزة، كان مثل السائح، الذي له حياة كاملة ومتكاملة في مكان آخر ولن يقيم طويلًا. يتفرج على كل شيء بنظرة السائح وقلقه، ويده على كيس نقوده الملفوف حول بطنه. كانت كل تصرفاته تخرج من داخل هذه الفكرة. يجلس على كرسي بجانب السرير بدلًا من النوم عليه، بالعافية خلع ملابسه المدنية، وارتدى ثوب العناية المركزة، ترك تلك الملابس بجوار سريره في انتظار اللحظة التي سيغادر فيها العناية، الأكثر من هذا ابتسامته وتشجيعه لي من بعيد، كأنه وافد من مجرة أخرى لا يسكن بها المرض. بهذا التشجيع كان يرتقي درجات أعلى مني في سلم النجاة،

وكان بحاجة دائمًا لأن يؤكد هذا الفارق بيننا. هناك صراع لا يلحظه أحد بين المرضى، كونه صراعًا حقيقيًّا تجري وقائعه داخل العقل، ولا تظهر له أي إشارات على السطح، إلا تلك الإشارات المتضامنة والنظرات الشفوقة، صراع ما قبل ميلاد الملكية والسيطرة والقوة والنقود، فليس سببه أي رغبة في اكتناز شيء، أو حرمان آخر من شيء، بل تتمنى فقط أن تكون أنت سعيد الحظ الذي يرفرف ملاك النجاة فوق سريره. اعتقدت أن دخول عم وليم العناية المركزة جاء عن طريق الخطأ، كمن يهرب من جريمة فيدعي الجنون أو المرض، كان تشخيص حالته إصابته بمرض السكري، ولا يحتاج سوى لضبط نسبة السكر، وهو أمر بسيط يمكن أن يتم علاجه وهو في البيت. كان خائفًا من الطبيب، وتحول الحوار اليومي بينهما إلى ما يشبه الاستجواب، وأخذ فيه طبعًا دور المتهم: كل شيء ينكره عم وليم، أو يرد على السؤال بسؤال مشابه، كأنه سيُحاسب لو أثبت الطبيب أنه المتسبب في مرضه، أو كأنه سيقلل تكاليف العلاج بإنكاره هذا وإلقاء تبعات مرضه على شخص آخر. ولم يكن يريد أن يمنح الطبيب دليل إدانته بهذه السهولة:

- بتخش الحمام كام مرَّة؟ يرد:
- كتير، ما تعدش.
- طيب وده ما خلاكش تشك بأنك عيان وعايز علاج؟ يجيب بالنفي: لأ.. بيقولوا كترة الدخول للحمام بتصفي الجسم من السموم.
- يا عم وليم بتحس إن ريقك ناشف؟
- عادي، ما أنا باشرب سجاير، وريجي دايمًا ناشف ومُر.

قضى الأيام الأربعة كأنه في فندق كامل الوجبات. بعد الإفطار ودخوله للحمام وقراءته في الإنجيل الصغير الذي كان يصحبه معه، يستعد لاستقبال بناته المكلبظات وزوجته. كن يتحلقن حول سريره، كان مثل جذر الشجرة العجوز التي تمنح القوة لتلك الجذور الناشئة، كن يشبهنَ في لبسهن وتسريحة شعرهن مسرحية ((لوكاندة الفردوس)) لأمين الهنيدي، وتلك الصيحة المدرسية المتبادلة بين الأب وبناته في هذا الطابور الصباحي: ((بنات... بابا)). أحيانًا كان يزوره بعض أقاربه من أصحاب الجلابيب وذوي لهجة صعيدية نقية. في اليوم الأول كان سعيدًا بالإفطار، فول وجبنة وزبادي، لدرجة أنه كان الخبر الأول الذي زفه لزوجته في أول زيارة لزوجها وهو مستلق على سرير غير سرير غرفة نومهما. لم يكن يتوقع أن يقدم مثل هذاً النوع من الطعام داخل المستشفى. في المستشفيات الطعام الشهي كان أحد الأقنعة التي تخفي فداحة المرض، ولكن مع مرور الوقت والأيام، وشعوره بتحسن حالته، أصبح هذا الإفطار عبئًا عليه، فقد انتصبت في خياله تلك الفاتورة التي يسجل فيها الإفطار والغداء والعشاء والشاي والعصير، وطلبات بناته. ازداد حنقه، وأصبح الشيطان الذي يلبسه يقول باستمرار: ((عايز أمشي هنا، لو ما خرجتش النهارده هسوي جريمة)). لقد فطن للعبة وأخذ يفسر كل شيء بأنه جزء من مؤامرة لاستنزاف ماله ومال بناته من بعده. عندما كنت أقوم للحمام، وأنا أجر أغلالي البلاستيكية، بصوت شخشخاتها، ينتبه لهذا الصوت لو كان غافيًا. ألقي عليه نظرة، يرفع رأسه بتلك النظارة الطبية من على صفحة الإنجيل المفتوحة، فأجده يشير لي مشجعًا، ويرفع لي الإنجيل، كأنه يباركني، وربما في سره يحمد الله على صحته وهيافة مرضه. كنا

نتبادل الإشارات، كأننا فقدنا حاسة الكلام. كان شكاكًا شكًّا تقليديًّا، الشك الذي يستيقظ عندما يبيت وسط غرباء. في اليوم الأول طلب من عاملة النظافة، في نوبتجية الصباح، أن تبحث له عن عشرين جنيهًا ورقية مفقودة كان يضعها على الكمودينو المعدني المجاور للسرير. سريعًا بدأت العاملة في القسَم، فهي معتادة على مثل هذه التلميحات التي تحمل اتهامًا مبطنًا، ومعتادة كذلك على الدفاع عن نفسها بلسان محايد غير متورط في الذنب. نفت أنها رأتها من الأساس. أصر عم وليم على أنه تركها. بسرعة التفتت العاملة لملابسه، ووضعت يدها فى أحد جيوب البنطلون، وأخرجت يدها وفيها دليل البراءة. اعتذر لها عن سوء ظنه:

- معلش يا بنتي السكر عالي عليَّ شوية.

وربما كانت احدى حيله، كان كمن يرسل حمارًا فى حقل ألغام، ليختبر خلوه منها، ولكن كان من الممكن ألاَّ يعود الحمار وينفجر اللغم فيه. ينصب شَرَكًا ويتمنى أن يقع فيه أحد، ولكنه شرك مؤذ حتى ولو لم يقع فيه أحد. تلك العاملة التي شك فيها، كانت على وشَك أن تترك العمل وتتفرغ لبيتها، كما سمعتها تحكي لزميلتها أمام سريري، التي أتت بها للعمل بدلًا منها. كانت تدربها على أخذ قراءات أكياس البول، وتؤكد على مسح قطراته الصفراء غير المحسوبة في القراءة، والتي تسقط فوق الأرضية، بالكلور عند تفريغ الكيس في الإناء الزجاجي المدرج. كنت أحرص على حساب تلك القطرات الساقطة، من ثروة بَولي، كأن هناك ميزانًا من ذهب يزن كل سوائل الجسم

ومعادنه، لأنها أحد الأدلة المهمة في سِفر المرض. في العناية المركزة أنت قريب جدًّا مما يعيش بداخلكَ، من غائطك وبولك، وعصارة معدتك الصفراء ((الأوكر))، ومن المسارات المتشعبة التي تسير فيها الدماء، والتي يلتقطها عقَلك ويعرضها بدقة على شاشة هذا الفضاء الأسود الذي يتوالد داخل عينيك المغمضتين. تتفتت حدود الشخصية القديمة التي اعتادت على هارمونية تقليدية لأعضائها ووظائفها. تلك الشخصية التي يخرج منها الغائط في سعادة، مصحوبًا بدخان السجائر الذي يغطي على رائحته، وجريدة الأمس، والبول المحبوس مصحوبًا بتأوه اللذة. يظهر وجه حقيقي للأفعال بدون تلك المفارقة التي أضْفَتها اللغة على آلامنا. نحن أبناء مفارقات لغوية عديدة. تبدأ في رؤية شخصيتك وسط هذه الإفرازات، كزجاجٍ يسيل عليه المطر المدرار في أحد الأفلام. لا أعني أي إهانة أو تدنٍّ للشخصية، وإنما تغيير في وظائف الأعضاء، فرائحة الغائط تغادرها تلك العفونة التي نلحظها في حماماتنا المضيئة. الأعضاء تتصالح مع بعضها البعض، ولا يتكبر أحدها على الآخر، ولا يعايره. الجميع تحت سيطرة ذلك السائل الأزرق الداكن لحبَّار الألم الذي لا يتوقف عن تعكير مياه نفسي. كان الوضع في بيت هذه الممرضة معكوسًا، فزوجها بلا عمل منذ سنين، وقد استمرأ هذا الوضع، واستمرأ عودتها يوميًّا بعلبة السجائر ((المارلبورو)) التي لايفضل غيرها. كان البيت يحتاج لمن يعيد دق أساساته من جديد. وربما كذلك زهقت هذه العاملة من حجم الإهانات والشكوك والتلميحات التي تحوط تلك المهنة حتى قبل أن تستلم وظيفتها. ابن هذه السيدة كان يعمل فى ((كافتيريا)) المستشفى. أثناء الغداء كانت تحتجز نصيبها وتضعه لابنها الشحط

وتجلس بجانبه في الممر الملحق بغرفة العناية على ((الترول))، المركون بجوار الحائط، تربت على ظهره كي تشجعه على الأكل، بينما أنا أكافح في جر خطواتي وأغلالي البلاستيكية في طريقي للحمام. لم يكن الابن يحتاج لهذا التشجيع، كان نهمه للطعام يفوق أي تشجيع من أمه، ويفوق كذلك برميل التأوهات الذي لا يفصله عنه سوى حائط. العاملات في المستشفى كن يسببن لي ارتباكًا نفسيًّا، كأنهن يقفن على باب أحد الجوامع يتسولن، كن يتبادلن مرورهن على الغرفة، يتلكأن في الخروج بعد تنظيفها، أو بعد تنظيف الحمام، أو بعد تغيير ملاءات السرير، ووصل الأمر بإحدى الممرضات المشرفات على القسم الذي كانت به غرفتي قبل إجراء العملية الثانية، والتي تتبعت آثاري بعد خروجى من العناية ودخولي إحدى الغرف في قسم آخر بعيد عنها، أنها كانت تتردد كل ساعة علينا، طبعًا لتطمئن علىَّ كما تقول، وأيضًا لتحصد ثمار الغرفة من الطعام والشوكولاتة والورود. عندما وجدت وجبتَىْ طعامي، أنا وسلوى، كما هما لم تؤكلا، جاءت بعلبة بلاستيكية وأخذت الفراخ والأرز والفاكهة. وجبتا طعام مؤبنتان لعدة أيام، ولكن بالنسبة لها لم ترَ فيهما إلا رائحة اللحم الشهي، كأنها اعتادت الأكل بجوار مقبرة. في كل زياراتها لغرفتي كانت تصحب معها تلك العلب البلاستيكية من باب الاحتياط، ولو عزمت عليها سلوى بقطعة شوكولاتة تأخذ نصيبها و نصيب ابنها. هذا الابن الغائب شاركنى في كل وجبات طعامي، وفي كل هدايا الشوكولاتة التي كان يأتي بها الأصدقاء. حتى الورود لم تسلم، وقالت إن ابنها، وهي أيضًا، يحبان الورود البيضاء التي تعبر عن السلام والحب والخير. في اليوم الثالث لمكوثه في غرفة العناية صار عم وليم كالثور الهائج، نفد

صبره، واسودَّت نفسيته، وأمطرت قريحته مطرًا أسود:

- عايز أروَّح البيت، بناتي مستنيين عشان يخرجوني، أنا لو ما طلعتش من هنا النهارده هاسوِّي جريمة، طب والإنجيل ماني بايت في السرير ده الليلة.

وغيرها من عبارات الاستشفاع والتوسل. لم يبقَ أمامه إلا أن يبكي، كبكاء الحديد، فلم أشك لحظة أنه صلب وقادر على أن يقلب الترابيزة على الجميع، ولكن يبدو أن خوفه من المرض أخفى هذا الجزء الصعيدي والصلب في شخصيته. كل من كان يمر على سريره، ويجده جالسًا على الكرسي، ورافعًا بوزه شبرين، يبتسم له ويمضي، كان لا يثق في كونه يملك القدرة على الخروج من العناية المركزة. بالفعل العناية المركزة مثل السجن، الخروج منه يحتاج لإرادة أكثر من الشفاء. كان يخاف من الطبيب المشرف على عنبر العناية، ويجلس أمامه مهذبًا، عاقدًا يديه، حتى يشفع له ويسمح له بالخروج. كان عند مروره يجلس أمامه كالتلميذ الصغير الذي يرفع إبهامه استئذانًا بالذهاب إلى الحمام. وهو منذ قليل كان يتوعد ويقسم بأنه سيقتله. كان طاقم التمريض يكتم الضحكات عندما يرون عم وليم بهذا الأدب والخوف. في اليوم الرابع لم يبرح كرسيه، بجوار السرير، من العاشرة، بعد مرور الطبيب، وحتى الخامسة، عندما نقلوه لإحدى الغرف، وليس إلى البيت كما كان يتمنى. بجانب كل سرير كان هناك كرسي شهد الكثير من اللحظات الفرحة في انتظار الخروج من هذا القبو الكبير.

بخروج عم وليم شعرت براحة، فلم يعد هناك أحد ينافسني، ويشغل

هذه المكانة وهذه الدرجة في سلم النجاة. بقيت أنا وصاحب البطن المنفوخ المشرف على الموت نغوص معًا في هذه المياه الزرقاء. ترقيت درجة، وأصبحت أشغل الطبقة الأعلى في سلم الشفاء. بت ليلة وسريره فارغ. السرير الفارغ كان أيضًا يشعرني برهبة، كونه السرير الذي سيستريح عليه الموت من عناء أيام نضال طويلة! في اليوم التالي شغلَت سريره سيدة في التسعين، تتمسك بقوة بمسند السرير كالخفاش، تصرخ طوال الوقت، ولها طلبان ملحَّان لا يحتملان أي إرجاء أو تسويف من الممرضات، أن يأتين لها بحبة برتقال طازجة، وبأبيها، لكي يخرجها من هذا المكان. كانت رائحة البرتقال تلعب بي في سريري، تدحرجني أمامها بين أشجار وحقول منبسطة وسط جوٍّ خريفي وأضواء مكسورة ومنعكسة على هذه الحبات الصفراء. كان يزور ((سيدة البرتقال)) مجموعة من السيدات المحجبات ذوات السطوة على الجن والإنس، كما سمعت من همس الممرضات، الحاجة آمنة، والحاجة نفيسة، والحاجة شهرت، كن من صاحبات الحظوة والجلسات الروحية. أما ابنها فقد كان مسنًّا، يتعدى الستين. أصبح أيضًا من المتعاطفين معي، وكلما أتى لزيارة والدته يرسل لي من بعيد، بقبضة يده، علامة التضامن. لقد استقبلت من بعيد علامات تضامن تغطي تاريخ الطبقة العاملة. هذه السيدة كانت تحتفظ أيضًا بعدة حبات من البرتقال في سريرها، ربما لمقايضة كبرى، عندما تقف عارية أمام الميزان وفي يديها تتلألأ هذه البرتقالات التي تلعب بها و تقذف بها لأعلى بحيث لا تسقط واحدة، بينما الله يبتسم لها.

٨

كل صباح في العاشرة كان ميعاد المرور الصباحي للأطباء . ينظر كبيرهم على اسمي المعلق على مستطيل كشاف الإضاءة أعلى السرير ، ثم ينادي على اسمي متوددا . يبدأ ((البروتوكول)) مبكرًا ، رئيسة الممرضات تستجوب الممرضة أو الممرض النوبتجى الذي كان يشرف على المريض ليلاً ، وتسأله عن أي مستجدات للحالة ، ليبدأ الممرض في تسميع ما قاله بالأمس وأول أمس وأول أول أمس لرئيسة الممرضات. تقرير صباحي ممل، ثم يأتي الطبيب النوبتجي كأنه على وشك دخول لجنة امتحان لم يستعد له ليسرق هذه المعلومات من فم رئيسة الممرضات ليلقيها في أذن الطبيب الكبير عند مروره. كل هؤلاء يصطفون أمام سريرك كصفوف تحية العلم. هناك من يتكلم، وهناك من يردد كالببغاء، و عادة يختم الطبيب الكبير ، المسؤول عن قسم العناية ، جلسة الاستماع هذه بتريقة أو شخطة في وجه أحدهم أو إحداهن ، ليؤدي دوره كما هو معروف، لحفظ ماء الوجه فقط. لم تعد للطبيب الكبير نفس السطوة أو الجاذبية التي تجعل كلامه مسموعًا، حتى من أصغر عاملة دائمًا تسمع برطمة ورغبة في إظهار رد فعل على أي إساءة موجهة لها ، كذلك اختفت أسطورة زواج الممرضات بأطباء، أصبح

كل منهما في جانب لا يتجاوزه ، ويتبادلون الشتائم المضمرة والاتهامات من وراء سور . ربما الممرضات الصغيرات اللاتي في مرحلة التمرين، أغلبهن يأتين من قرى البحيرة ، هن اللاتي ما زلن يحلمن بهذا الطبيب النوبتجي الأنيق ، ويتشممن رائحة عطره من بعيد ، وينظرن لحاجياته الشخصية التي يتركها فى غرفة النوبتجية بعين مسحورة، وأمنيتهن أن ينفردن به أثناء ليل النوبتجية الطويل والممل، فقط من أجل تبادل الحكايات. كانت إحداهن تتحدث عن الطبيب النوبتجي الوسيم بوَلَه ، وعن ((البارفانات)) الأنيقة التي يصحبها معه في غرفة النوبتجيةَ. كن يتكلمن بشكل عادي أمام سريري ، كأن ليس هناك أحد يستمع لهذا البوح التلقائي. أثناء فترة مكوثي، كانت هناك ثورة تشهدها كل أروقة المستشفى حتى وصلت لغرفة العناية المركزة بشكل ما، امتدادًا للتحولات التي كانت تعيشها مصر منذ ثورة يناير . لم يهنأ مكان بدون أن تعبر عليه تلك الدوائر الصاخبة والحديث الذي ينطلق من زوايا عديدة كطلقات الرصاص والصراخ. طاقم التمريض، الذي كان يمثل الشعب، كان ثائرًا ضد إدارة المستشفى، بسبب عدم عدالة توزيع النوبتجيات، والأجور المتدنية والفساد. أحدهم صحح لي معلومتي التي قلتها أمامه وهو يضع لي كيس الدم ، كنوع من الإطراء غير المباشر ، بجودة الخدمة والرعاية فى العناية المركزة اللتين يشتهر بهما هذا المستشفى الخاص. رد بعفوائية كأني زميل يجلس معه على المقهى ، وليس مريضًا داخل العناية المركزة: ((ده كان زمان)). كل يوم في الممر الذي يؤدي لغرفة العناية المركزة كانت تجرى المفاوضات بين الطبيب الكبير المسؤول عن قسم العناية المركزة وبينهم، على مسمع من المرضى الذين على و شك توديع الحياة! حتى فى ساعات

الليل كانوا يتناقشون فيما بينهم بنفس الحماس الذي لم يفتر، وتلك الدوائر الفارغة من الحوارات. مرت الذكرى الثانية لثورة ٢٥ يناير وأنا راقد على ظهري ، كمسخ ((كافكا)) ، في العناية المركزة. لم تصل أي أصداء لها هناك باستثناء بعض الحوارات الفاترة للممرضات العائدات من الإجازة، وتبكيرهن في العودة خوفًا من حدوث أي طارئ وتعطل القطارات. الجميع كان يتلافى التجمعات القليلةالتي خرجت في هذا اليوم. المستشفى مدينة محصنة بأسوار عالية ضد أي ضوضاء أو أحداث ، مهما كانت، وبالأخص غرفة العناية المركزة المبطنة بعوازل للصوت، وبأسوار أطول بكثير من أسوار المستشفى الخارجية. جميعهم بنوا هذا السور اللامرئي الذي لا يخترقه رصاص أي أحداث مهما كانت شدتها. ولكن بعد خروجي من العناية المركزة بدأت أستقبل إرسال الحياة في الشارع ، وأسمع بعض الصيحات العارمة لشباب يتجولون في الليل، كانوا يشعرون بالبراح الذي يخلفه الليل، ويصرون على احتوائه بأصواتهم، فيصدرون هذه النداءات التي تشبه الصراخ. كنت أسمعها يوميًّا من سريري في الغرفة التي انتقلت إليها. بينما سلوى مستلقية على الكنبة المواجهة في غفوة سريعة. لا تستيقظ لهذه الأصوات، بالرغم من ذبذباتها القوية، لأن ساعتها كانت مضبوطة على صوت ذبذبة ألمي الخافت والمكتوم.

كل يوم كانت تزداد الأوراق الصغيرة الخاصة بالتحاليل، والتي تشبه فواتير سوبرماركت ((المولات)) الكبيرة التي يدسها لك ((الكاشير)) في قاع الكيس البلاستيكي، على السبورة الخاصة بي، ومنها تذهب للملف الكبير الذي يخص كل مريض. يوميًّا كنت أمر بأنواع عدة من

التحاليل والأشعة، جهاز أشعة الصدر كان يشبه رقبة الزرافة الطويلة، وهو يدنو مني، كأنه في انتظار الجزرة التي يراها مثبتة في صدري، ثم يصيح عامل الأشعة: ((أشعة!))، كى يهرب كل من بالغرفة، ولا يتبقى سوى المرضى المُحَاصرين، من أمام هذه الزرافة الكهربائية التي تبخ أشعة سينية. قبل هذا المرور الطبي المعتاد، كان هناك مرور مجاملة مكون من نائب مدير المستشفى و رئيسة الممرضات، ليسألاك عن صحتك، ولو هناك أي شكاية أو طلب خاص. هذه المقابلة الصباحية كانت من أثقل الأشياء على نفسي. ابتسام ومجاملة تشعر بأن وراءهما الاطمئنان على استثماراتهم، التي أصبحتُ، أنا ومرضي، أحد عناصرها، بل أهم عنصر فيها. كان نائب المدير يبتسم فقط بدون كلام، كأنه ((روبوت)) ينفذ أوامر وهو مخدر. كنت أراه زوج ابنة مدير المستشفى، كما ظهرت صورته في الأفلام. تشعر بطموح هش وراء هذه الابتسامة الإمعة، وملابسه الضيقة السوداء وحذائه المدبب الحاد. أما رئيسة ممرضات المستشفى فكانت ((كوم)) آخر، تتعامل معي كطفل صغير: ((إنت جميل النهارده))، ((إحنا إتحسِّنا كتير))، ((إحنا بقينا بنروح الحمام لوحدنا)). هذا الضمير الجمعي الذي تستخدمه لا أجد له مقابلاً شعوريًّا في نفسي. كنت أبتسم لها ابتسامة بلهاء، موافقاً على كلامها، والرَّضَّاعة في فمي. كنت أؤكد لهما أنني تحسنت حتى يسمحا لي بأن أهرِّب حياتي من هذا المكان، بالرغم من أن حياتي نفسها لم تعد معي، كانت معلقة في مكان ما لم يعد آمنًا، ويمكن سرقتها في أي لحظة. لزمن طويل مضى كنت أقف وراء قدري بمسافة، أرى ما يحدث لي، وربما قبل حدوثه، كأننى إله نفسي. أرى الرموز والعلامات المنذرة. كنت قارئًا جيدًا لهذا المجال اللغوي والرمزي الذي يحيط بي،

ولكن فجأة ضاقت هذه المسافة واستعاد قدري ساحته وقدرته على تضليلي. بدأ من جديد هذا الغموض يحيط بي، وعدت إلى شكل مباشر في التفسير والتأويل، أفسر السعادة و علاماتها بعكسها، كما كانت تفعلى أمي، وخوفها من لحظات السعادة المفاجئة. فقدتُ المفسِّر الداخلي الدقيق لهذه العلامات، وباستمرار في انتظار ضربة القدر غير المتوقعة والمختفية وراء أثاث وأبواب الحياة اليومية. في إقامة من أجل الكتابة بألمانيا وسط هذا الهدوء المريع لإحدى القرى التى كنت أعيش فيها، اندلعت النار فجأة في البيت الذي أعيش فيه، بسبب خطأ غاية في التفاهة، ولكنه تجاوز تفاهته وتحول لخطأ ناضج يسمح له بالوقوف بالتساوي مع الأخطاء الكبيرة في كتاب القدر. في ذلك الوقت كنت قد فقدت بوصلة التواصل، وهذه المسافة، مع قدري الذي صار يتلاعب بي. نالت النار من يدي اليمنى التي أكتب بها، واضطررت لعمل عملية جراحية كبيرة. كل هذا الهدوء الذي كنت أنعم به طوال شهور أربعة كان يخفي وراءه هذه الفاجعة. الغريب أنني كنت مستسلمًا تماماً لما حدث، كأن شيئًا لم يحدث، كما حدث في تجربتي هذه، لا لشيء إلا لأنني كنت أشعر في داخلي بأنني أعيد صياغة علاقة جديدة عادلة مع قدري بدون أن أتعالى عليه، بل أمنحه مكانه الرفيع، ولا أبخسه قَدْرَه ودوره وغموضه. هذه الفواجع التي كنت أمر بها كانت تجهز الميزان لاتزان جديد. انتهى عهد الصراع وتخلصت من هذا الإله الذي كنت أريد أن أدمره، بكل أقداره المعاندة، وبدأت أنظر لإله أبعد بكثير يحتاج لصفاء سريرة كي أفهم كنهه ودوره في حياتي. كل ما حدث لي كان بسبب سوء فهم أصيل بيني وبين هذا الإله، ومن أجل تصفية حسابي معه. ربما الآن لا أبحث عن تلك المسافة التي تفصلني

للأمام أو للخلف مع أي شيء. لا أريد أن أسبق أو أتخلف، مع مشاعر التفوق في السبق، أو مشاعر الدونية والضعف في التخلف. أعود إنساناً بكل مشاعر الغموض الذي يحوطه، والذي يعيش في انتظار، ولكنه انتظار مفتوح بدون توقع الأسوأ. موتي القادم، في الأغلب، لن يحمل رسائل قبله أو أي علامات، الرسائل والعلامات تعني أن هناك من يرسل، وهناك من يستقبل، وأن هناك أجلاً مفتوحًا لتفسير هذه الرسالة، تحذيرًا أو تنبيهًا، أو حتى كونها رسالة خاطئة لم تذهب لصاحبها الصحيح. أما الآن فليس هناك أجل مفتوح لأي إشارة، ولا زمن يقف بعدها ليفسرها. الموت موت بلا تفسير أو علامات تدل عليه. إنها الرسالة الأخيرة التي يكلمني فيها الله شخصيًّا، وبشكل مباشر وليس رمزيًّا. في فترة إقامتي تلك، كنت قد غادرت مصر بعد الثورة بشهور قليلة، مُصطحبًا معي كل التشوشات والمخاوف إلى هناك. مرة واحدة دخلت في نطاق جاذبية جديدة منعت التفاعلات التي صحبتها معي. ربما كان هذا المنع يحدث فقط على السطح. أفكر الآن بالمغترب، تتجمد كل مشاعره التي أتى بها، ليستعيدها في الأعماق وبصورة مختلفة ، ربما بإيذاء نفسه، كي يستعيد صورة انقلبت تمامًا جغرافيًّا ونفسيًّا. مصطفى سعيد، بطل رواية الطيب صالح ((موسم الهجرة إلى الشمال))، كذلك بطل سهيل إدريس في رواية ((الحي اللاتيني))، وبطل يحيى حقي في رواية ((قنديل أم هاشم))، كلهم ثوريون بشكل ما، و كلهم يتجهون ناحية الغرب كالفراشة التي تحترق من شدة الانجذاب، ولا تترك أثرًا لاحتراقها إلا الأثر السيىء لهذا الاحتراق ، وليس التسامي الذي كانوا يرغبون فيه ، وكلهم أيضًا يتعالون في دواخلهم على هذا الغرب، بسبب ثوريتهم الكونية التي لا تعترفبالحدود

، وفي دواخلهم أيضاً يعانون من دونية تجاهه. كلهم أيضاً آذوا أنفسهم في الأعماق، دون أن يدروا، نتيجة هذا القرب المضطرب من تلك النار. ربما الإيذاء، غير المتعمد لأنفسهم ، كان مكان تحقق معكوس و تعبيرًا عن هذه التناقضات والأدوار المختلفة التي لن تؤدي لعلاقة متوازنة، كما تفعل التضحية من جانب واحد في علاقات الحب، تضع قوسًا كبيراً على أقواس كثيرة مفتوحة. الغرب كان يمثله داخلهم إله خاص، يقف على ذروة جبل للتسامي، إله يعبدونه ويمقتونه أيضًا. ربما أنا أيضًا ورثت هذا الإله في علاقتي بالفكر الآخر. كانت الأرض ممهدة ليحدث الإيذاء، كوني أصبحت فى أرض الغرب، لكى يستعيد الغرب إلهه، و أستعيد أنا أيضًا إلهي. فى أرض الغرب حيث زُرعت البذرة الأولى، أستعيد علاقتي بنفسي، و أغير من بوصلة إلهي الخاص، وأبدل جلده عبر النار. ربما لهذا السبب لم أكن ناقمًا على ما حدث، ولا مستغربًا حدوثه، ولا كذلك في العملية الأخيرة التي جاءت أيضًا لتبدل وتدقق مكان الإله بداخلي، وتضع الموت والبعث وسط رموز مألوفة، وتجعله يكلمني مباشرة بدون أي وساطات .

٩

اكتشفت زوايا جديدة لم أرَ الحياة من خلالها من قبل، منها وأنا مستلق على السرير المتحرك أجوب زوايا وممرات المستشفى من أجل إجراءً التحاليل أو الأشعة أو رسم القلب وغيرها من المهام اليومية لدولاب عمل المستشفيات. المكان الذي تسقط عليه النظرات بتأثير الجاذبية والشفقة، كشحاذي الأرصفة، ولكن نظرتي كانت تصعد ضد الجاذبية وتتعدى الوجه الذي ينظر لي، وتتعدى سقف الحجرة، و تكمل مسيرتها حتى تصل للسماء. كل وجه كان يفتح لي ثغرة في جدران هذه الحجرة المحصنة، ولم أعدم في أي لحظة الوسيلة التي تجعلني أحلق بخيالي وراء خطوط العدو! لضيق الممرات وانحناءاتها الحادة كان السرير يرتطم بتلك الزوايا التي تهز جسمي هزًّا غير محتمل فى لحظة هشاشته ، حتى كنت أشعر بهينتفض ويشرف على حدود البكاء. الفراغ البسيط بين المصعد والأرض كان يهين جسمي بقوة، يرجه رجة تصل لأعماق صوبة الكرامة. سأحكي لسلوى بعدها، دامعًا، عن هذه الإهانات التي لا يقف أحد وراءها سوى إحساسي بالهشاشة و تركيزي على كلى ما يحيط بي. كان هناك أحد الممرضين، الذي يسلمني لآخر، عند مغادرتي منطقة نفوذه ، يدفع السرير عبر هذه الممرات، وأرى وجوه

الأصدقاء تتحلق حولي بمسافات متباينة حسب قدرة كل منهم على الاقتراب من مقبض الموت الساخن ، عند كل زاوية : لحظة دخولي المصعد، لحظة خروجي منه، لحظة دخولي غرفة الأشعة أو غرفة العمليات، امتلأت هذه النقاط المفصلية ، في رحلة المرض ، بوجوه كانت تتخذ المكان المتوقع دائمًا، الذي سأحل به بعد ثوان، كأنها مطاردة الوداع التي لا تترك أي فرصة أو ثقبًا إلاَّ لترى من خلاله بصيص الضوء في آخر النفق. أي صورة هنا لها ثمن! كم كان لهذه الوجوه تأثير قوي في تبطين هذه الزوايا الحادة المفصلية فى رحلة مرضي، والتى كانت تهز جسدي بعنف، بمادة لينة تمتص الألم. اكتشفت مدى قصور اليدين فى توصيل الإحساس، تمنيت أن تخرج مني أذرع كثيرة تحتضن هذا القادم. كانت اليد ، كمعبر ضيق، تحتبس وراءه مشاعر كثيرة، تُحتجز لأجل غير مسمى، مهما ضغطتَ على اليد الأخرى، و حملتهَا رجاءك في الحياة، واستودعتها أملك؛ كنتُ هناك فى قعر الروح أشعر ببرودة لا يشاركني فيها أحد. أحياناً كنت أستيقظ من غفوتي الثقيلة لأجد باقة ورد على سريري، فقد جاء أحدهم خارج مواعيد الزيارة ووجدني نائمًا وأصر على أن يضع باقة الورد كأول رسالة أستقبلها عند استيقاظي. في إحدى غفواتي أتت إحدى صديقاتي، بعد أن سلمَت كيس الدم الذي تبرعت به، أو أتت به من أحد المتبرعين، لممرضة النوبتجية؛ كنتُ ما بين النوم والصحو، فاقتربَت من سريري وطبعت قُبلة على جبيني، ثم مرت سريعاً. لم أشعر إلا بأثر القبلة المباغتة وشبح خطواتها السريعة وطريقة نقل خطواتها الطفولية كأنها ما زالت تلعب السيجة، تنط أكثر منها تسير. كنت دائمًا ما بين النوم والاستيقاظ، حتى لغتي كانت كذلك، ما بين الشعور واللاشعور، أتكلم

بقلبي أو بذلك العضو الجديد الذي منحه لي الموت حتى نتساوى في النزال. مثل ألعاب الطفولة عندما يكون أحدنا متمكنًا من نفسه و من قدرته على الفوز كان يمنح غريمه في السباق مسافة إضافية، يبدأ بها هذا الغريم، وما زال هو على خط البداية. الموت كان يمنحني أيضًا صوتاً أعبرِّ به عنه و عن حضوره، هذا الصوت الواسع والواثق الذي تحدثت به مع أحد الأصدقاء، وأنا مستلقٍ على السرير، مخبراً إياه بأن هذا السرير ليس كما يبدو سريرًا ضيقاً، إنه واسع للغاية يسع كل خيالاتي و ذكرياتي وخوفي من الموت! بهذه الطريقة كنت أرى كل التفاصيل من حولي مضافًا لها تلك العين والعزم الداخليان للخيال، وهو مكان المقاومة الحر الذي ولَّده الاحتكاك بطاقة النهايات، لأنني ببساطة لم أكن سطرًا من أحد سطورها حتى هذه اللحظة. المقاومة الحرة أحد رموز الحياة العميقة المدفونة في باطن اللاوعي . هذه الورود التي كنت ألقاها على طرف السرير بالقرب من قدمي، كانت تذكرني بزيارات الأولياء و القبور والورود المثبتة على المقابر اليهودية في الإسكندرية مصحوبة بعبارات التأبين المحفورة في الرخام مع صور الموتى. في أولى هذه الزيارات، والتي كانت في بداية التسعينيات، ذهبت بصحبة سلوى وصديق لي لزيارة هذه المقابر التي كانت تعد اكتشافًا بالنسبة لنا، هذه الأعمدة الأسطوانية المصنوعة من الرخام، وغير المكتملة من أعلى، الملفوف عليها فرع من شجرة زيتون. كنت أشاهد أحدها لسنوات طويلة وأنا أدور حول ميدان الخرطوم، وفي منتصفه تمثال ((كاتمة الأسرار)) لمختار، أو الآخر وأنا أركب الترام في محطة الشاطبي، أو مارٌّ بها. نفحنا حارس المقبرة وعائلته مبلغاً من المال، وسمح لنا بأن نعيش وسط هذهالصور الفوتوغرافية المحنطة،

وكلمات الوداع والأكاليل المتيبسة. هؤلاء هم الموتى المهجورون، لم يكن يزورهم أحد إلا نادرًا، سواء قبل اتفاقية السلام مع إسرائيل أو بعدها. كانت المقبرة بمثابة زجاجة نبيذ معتق فُتحت لنا خصيصًا ، أو كمن يزيح الستار عن مومياء مكتشفة حديثًا، كل تفصيلة أو إشارة تردنا لعصر كان مكتومًا، بهوائه القديم، داخل هذه الأسوار العالية. ولكن قبري أخذ يتسع، و شيدتُ فوقه سماء مجازية، بخروجي المستمر منه والتحليق مع تلك الطيور الورقية التي كان يأتي بها أحد الأصدقاء، والتي كان يصنعها بيده. على جناحَي كل طائر يكتب إحدى أمنياته لي، كشجرة الأمنيات اليابانية. كنت محاطًا بأمنيات عديدة ، كنت أتخيل تلك الطيور في سرب طويل وأنا وسطها متماه معها، بردائي الأبيض، تقودني في مساراتها ، لأنها تعرف جيدًا موطن تحقق الأمنيات.

١٠

بدأت أضيق بالزائرين، أرى في عيونهم رعبًا لم أرَ مثيلاً له في نفسي، كنت مستسلمًا كمن ليس لديه ما يخسره ، لأني لم أكن في معركة الحياة والموت، كنت فقط أرجح كفة الحياة بتاريخ طويل من العشرة والمعرفة والانتماء. في كل مواجهة، حتى ولو لم نكن نعرف الَحياة جيدًا، فليس لنا من مرجع سواها، تلوذ به وقت الأزمة. كنت واثقًا من تلك الطبقة الرملية المترسبة في نفسي حبًّا للحياة، والتي مرت على عوائق كثيرة اجتازتها، ولم يبقَ إلاَّ الاعتراف بها. كنت أقاوم الموت بالقصور الذاتي لهذا الحب الداخلي. عند درجة معينة يزول الخوف، مع الإرادة، وتترك كل الخيوط تفلت من يدك، لأنك تعرف بأنها لن تتوه في الفضاء، وستعود إليك بشكل آخر، لأنها أخذت شكل يدك، كأنك تتبرع بحياتك لصالح مؤسسةخيرية لإدارة الأرواح وإعادة توزيعها على المحتاجين. لم أعد أمتلك حياتي كاملة، أو أن أفرض عليها ملكيتي ، أصبح هناك شريك غير مرئي، أو هذا التشديد الذاتي والتقليص في إحساسي بالمتعة. لقد انفصلت بمسافة عن تاريخ أي أنانية أو امتلاك عاشهما الجسم في السابق، بقدر المسافة التى تقربني من هذه الحرية العدمية. هذا الحضور الكثيف والدافئ والمتخوف من

الأصدقاء، ومن هم أبعد في المسافة، أو أقرب، كل هذا كان يجسد أمام عينيَّ فكرة الغياب، غيابي. كان حضورهم الكثيف من أجل نزعي من مكان، و وضعي فى مكان آخر، هذا المكان الذي اجتهدوا جميعًا لكي أغادره، والذي رأيت ملامحه واضحة في عيونهم، ترك فراغًا في نفسي . الكل كان يستبطن الغياب فى نظر ته لي. هذا الفراغ المسكون بجسد، أو السكون الأبيض الممتد بمستقبل هذا الجسد، كان الأكثر تجسيدًا لمفهوم الغياب، الذي ظللت أحمله حتى بعد شفائى. كانت الواقعة تدور في مكان فسيح للمعنى وللإحساس، لذا فوجود الناس أشعرني بلحظة وداع، أحسست بأني أفقد شيئًا لم أعد أملكه كاملاً. الحياة عادت لي ببساطة لأني أستحقها، لأني أصبحت جزءًا من مسارها اليومي من المشرق للمغرب. الخوف الذي كنت أراه في عيون الزائرين كان يبعدني عن هذا الإحساسالحر ، ويبرز داخلي مشاعر الخوف والحرص على الحياة الذاهبة. إذا كانت لعبة، فَلْأَرْم فيها بكل ما أملك. الخوف كان يشعرني بملكيتي وحدي لحياتي. كُنت خارج هذه المعركة تمامًا. لم أكن في معركة ولكن في جلسة اعتراف طويلة بين الحياة والموت، كان يعاد فيها توزيع أنصبة الملكية بالعدل، بيني وبين الحياة. أحيانًا كنت أرفض دخول الزائرين، كى أتجنب رؤية غيابي بإحساس غير إحساسي الشخصي، خاصة من أخي الذي كان فزعه يعيد لي صورة عائلتنا بأجدادها وآبائها وأحفادها، من مات ومن عاش، وهي ملتفة حول جسد أبيض ملفوف في القماش. جميعهم كانوا مجتمعين داخل هذه النظرة الفزعة. أحيانًا أخرى، كنت أصر على دخول من أريد رؤيته بالفعل، خوفًا من أن تضيع تلك اللحظات المهمة والثمينة في وداعات لا تمس القلب. كنت الوحيد الذي لا

يشعر بالخوف من الموت، بعكس الآخرين الذين كانوا يحيطون بي. ربما لأني كنت أقف في حضرته، في مركزه، حيث النقطة التي تتلاشى فيها القوى، هذا المكان الخفيف، المنهك من التجاذبات. المكان الذي يتلخص فيه الفارق، ويصبح الشيء هو أيضًا نقيضه، تصبح المسافة بينك وبين الموت صفرًا، أو عدت أنت أحد رموزه الحية. كنت أقف في صفر الموت، في مصب قوى متعادلة: الموت والحياة، الحب والفناء، الاستمرار، التوقف، الأمل العدمي، العدم الذي سيخلق أملاً جديدًا. كان هناك تيار مائي يسير في نفسي، له مسار واضح ورائق. كنت أشعر بأن بلوغ الخمسين يسمح بأن تموت بدون شعور كبير بالأسف، إنه سن القطاف، ليس الأربعين أو الثلاثين الذي تشعر فيه بأن هناك حياة لم تكتمل بعد، ومن مات في هذه السن تشعر تجاهه بالأسف لأنه كان شجاعًا وضحَّى بهذا العمر الذي لم يَعشْه، بينما أنت جبان وخائف وتكوِّش على عمرك في خزانة حديدية! في الخمسين هناك شبه اكتمال ما لدورة أساسية من دورات الحياة، بداية التعادل مع الحياة، كأنك أخذت منها مثل ما سوف تأخذه هي منك، لا خسارة كبيرة في الغياب. سن تسمح بتقبل الموت. لو متُّ فلن يكون هناك أحد مدين لي بعمر لم أعشه. كان هذا التيار المائي الرائق يسحب وجودي تجاه نقطة تسليم واستسلام لا هزيمة فيه. لو عشت فالحياة بداية جديدة، ولو مت، فالموت أيضًا بداية جديدة.

لا أعرف سر الرمال الساخنة التى كانت تطارد أحلامي في العناية المركزة. كانت أول أمنية أريد أن أحققها بعد خروجي من المستشفى أن أتمرمغ على أرض فسيحة من الرمال الساخنة (كما فعل دياب، بطل

يوسف شاهين في فيلم ((الأرض))، بعد خروجه من السجن : أخذ يعدو ويعدو ويعدو داخل أحد الحقول إلى أن وصل لبقعة انحنى فيها على الأرض وأخذ يتمرمغ في ترابها)، أستلقي عليها، أو أدس فيها قدميَّ و هما عاريتان. كان هذا الملمس الساخن يلخص فكرة الحياة بالنسبة لي في هذه اللحظة. كانت الحياة تأخذ رموزًا كثيرة ومتغيرة، كأننا في عرض كرنفالي. هناك تقليد في واحة سيوة، يتم دفن الجسم المعلول بكامله في الرمال الساخنة لشهرَي يوليو وأغسطس، حتى تمتص الرمال رطوبة الجسم وسوائله الزائدة. كان وصف من يقوم على هذا العمل بأنه بعد خروج الشخص المعلول يشم رائحة نتن لا تطاق. جسد آخر يُبعث، كالعنقاء، من هذه الرمال الساخنة، ويترك خلفه رماد جسده القديم. كانت الرمال تتسلق شجرة الذاكرة بإصرار ولا تريد أن تبرح هذه الفروع المحترقة من تأثير المخدر. كان هناك نداء روحي لهذه الرمال. كنت أنام بجوار هذا الشريط الأصفر الذي كنا نرسمه أسفل الصفحة في كراسات الرسم، صلصال الصغار الحي أمام سأم وأبدية البحر. تلمس روحي، في عباءة المخدر، تلك الأنفاق التي كنا نشيدها تحت الرمال، وتجري فيها مياه سرية وتتلامس فيها أصابعنا. هذه الصورة كانت تأتي من مكان عميق فى الذاكرة، كأني مدين لهذه الرمال، لتلك الحبيبات التي كانت تلتصق بعرق ظهري،وتتناثر على السرير الأبيض للعناية المركزة. كنت معلقاً بدون جاذبية، بدون أرض تحتي، تبتعد عني الأشياء ، والمشاعر ووجوه حياتي اليومية. وأنا صغير كنت أدسُّ يدي بالعملة المعدنية داخل الرمال الساخنة على شاطىء البحر، لا أغادر إلا بعد ضياع هذه القطعة المعدنية وسط الملايين من ذرات الرمال. ربما كانت أمنيتي في أن

أقرِّب جسمي من أصابع الطفولة أو من بعض عملاتها الضائعة! بينما أنا نائم وسط مكعبات الثلج، كنت أشعر كأنني أحد الأجسام المحنطة المعروضة في متحف الإنسان. كنت وسط هذا العصر الجليدي، أستدعي، بأطراف ذاكرتي، صورة جدتي لأبي بجانبي على السرير، وهي تقوم من النوم في الثالثة فجرًا وتشعل وابور الجاز ليؤنسها بوشيشه ودفئه وهي تؤدي طقوس صلاة الفجر. أتيت بهذه الذكرى البعيدة، وبكل تفاصيلها، وأفسحت لها مكانًا بجانبي، بجوار مكعبات وأكياس الثلج. كنت أحاول أن أستدعي هذا الصوت الذي كان بدوره يبعث فى أوصالي الدفء. تعودت على هذا الاستدعاء اليومي ، ما عليَّ سوى أن أغمض عينيَّ وتطوف بجسدي تلك الرجفة عند لقاء الحار بالبارد. كان جسمي يسترد بعض عافيته وحرارته من هذا الكهف الطفولي. كان هو الثقب، الذي يقبع فيأي نفس ، والذي تمر منه الحياة في الاتجاهين، في تلك الساعات الصعبة ـ هذا الثقب الذي كان يمتلئ بحرارة طفولة لا يمكن أن تطمرها كل ثلوج العالم. كان الثلج أحد أصدقائي في تلك المرحلة. كانت درجة حرارة جسمى مرتفعة باستمرار، ما يسب لي وهنًا مضاعفًا، ولا يُسمح عندها بعملية نقل الدم الذي كنت أحتاجه بشدة . لحظات وتأتي الممرضة بأكياس الثلج، توزعها تحت إبطي، و ما بين الفخذين، حيث مراكز تخزين حرارة الجسم، ثم تنتقل لجبهتي، ومنها لساقي. كان الثلج له مسار يسير فيه ويؤدي مهمته، بجانب مسارات كثيرة لإبر أخذ العينات، وإبر أكياس المحلول، وإبر ((الكانيولات)) وغيرها. كان جسمى هو الحاضن لمسارات عدة، كإحدى المدن التي تظل مضاءة ليلاً.

كان هناك ما يشبه الانشطار النووي. كل جُزَيْء ينشطر، كل خلية تقاوم. الانشطار الذي تتولد منه طاقة تعيد ارتباط الجسم بعالم الطاقة الأصلي. طاقة الجسم المختزنة التي أمدتني بالحياة، كانت آتية من تفاعل هذا الفرد، الذي هو أنا في هذه الحالة، بحدوده النفسية والجسمية، وانفتاحه داخل حدود أكبر، هي الطبيعة والناس والكون ، وكل ما هو خارجي. في تلك اللحظة يظهر جيدًا هذا الإحداثي ويشف تمامًا، مثل إحداثي الأهداف فى غرف عمليات التخطيط للمعارك، وينسخ أي إحداثي آخر تتعلق به الحياة كإحداثى الزمان والمكان، أو المحدود واللامحدود. هذا الإحداثي، ومدى أصالته، هو الذي يمد أي جسم ، لحظة الخطر، بالطاقة والحب والأمان. يرد مقاومة الموت من حادث فردي إلى أصله، كخسارة تمس الجماعة. أي موت مؤثر في هذه المعادلة التي تتماس فيها حدود الفرد مع حدود الجماعة وتتعداها لحدود الكون الذي تشعر بملمس جلده على جلدك الساخن. واستمرار أي حياة أيضًا مؤثر داخلها. إنه قياس جديد للكون وللوجود وللحب يتم اكتشافه بعد أن نزيح تلك التراكمات التي تخبئ هذه الشعلة الساهرة التي تضيء علاقة الفرد بالمجموع و بالطبيعة و بالكون، وبكل ما هو خارج عنه. حضور الموت يزيح تلك التراكمات لثوان أو لدقائق، وليس لمدة طويلة، فهو ليس لعبة، حتى لا يتسلل الموت لهذه الشعلة الساهرة ويطفئها. إنه يساعدنا كي نؤصل وجودنا وانتسابنا للحياة بمعناها الواسع غير الأناني، وغير المحدود.

نفسر حياتنا دائمًا من خلال ذروات نبلغها، أو نسقط منها: ذروة القذف، ذروة الألم، ذروة الانحطاط ، ذروة السعادة. . ونفسرها كذلك

بمجموعة من اللذات: لذة الجنس، لذة الطعام، لذة الخلاص. إننا نحمِّل عليها كل شيء في حياتنا ، نحمِّلها ما لا تحتمله، ولكن للأسف لا يوجد بديل، حتى لو كانت تعريفاتنا لأنفسنا بها بعض الأخطاء، لكثرة التشبيهات التي تتكاثر حولنا والتصاقنا بتلك الذروات واللذات العميقة؛ كوننا محاصرين داخل إمكانات وحدود اللغة. في المستشفى، المليء برائحة البول الفاسد المدسوس تحت طبقة مفضوحة من ((الديتول))، كنت أستعيد يوميًّا تفاصيل هذا ((الأورجازم)) المفرغ من الرغبة. عند ذهابي للتغوط، كنت أشعر بانحباس شديد للبول، لا يوجد ما يبرره فيزيقيًّا، فقط ارتباط فعل التغوط بالتبول تاريخيًّا. ثوان تتوقف فيها الحياة، أمررها بإغماض عيني، وبالعد على عداد تحمُّل الألم؛ واحد، اتنين، تلاتة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، تمانية، تسعة، حتى تزول. بالرغم من توصيل القسطرة بقضيبي، كان يحدث حصر كاذب للبول تعيده ذاكرة الجسم عليَّ ، كالحمل الكاذب، تشعر بكل الأعراض بدون وجود أصل مادي لها. منذ متى وأنا أعتمد فقط على الأصل المادي في تفسير حياتي؟ كنت في هذه الفترة أسترجع كل الأصول غير المادية التي أهملتها طوال حياتي. كنت في لحظة تجمع بين الواقع والذاكرة، وأيضا الخيال، كلٌّ يقوم بدوره لوضع الحقيقة فى مستوى يمكن تحملها فيه، حتى حقيقة الموت. كنت أطلب من العاملة المختصة قبل ذهابي للتغوط أن تفرغ كيس القسطرة من البول المتراكم فيه، حتى أشعر، نفسيًّا، بخلو مثانتي منه. رؤيتي لكيس البول وهو ممتلئ كانت تشعرني بأني محصور، وأن كيس القسطرة امتداد لمثانتي. كانت العاملة تتبرم قليلاً لأنه ليس ملآن، وأنها قد أفرغته منذ قليل عندما

دونت كميته فى ملفى الماثل أمامي كسجل الذنوب والحسنات. أنظر إليها بقلة حيلة فتتسم كأنها تغير اللفافات المتسخة لابنها الرضيع. ظلت هذه الثواني من الحصر تتوالى عليَّ، حتى بعد نزع القسطرة وانتظام تبولي وخروجي من المستشفى وعودتي للبيت. يبدو أن الذاكرة ظلت محتفظة، بالقصور الذاتي، بهذه اللحظات المؤلمة، ولم تتجاوزها بعد. ربما كانت تعامل معي بالتدريج ، تنقلني من حالة لحالة بشكل هادئ، حتى لا تسبب لي الارتباك.

في طريقي للحمام كنت أصادف، ذهابًا وإيابًا، ذلك الشعاع من الضوء في تلك الغرفة البعيدة التي يسمونها في المستشفى ((غرفة العزل))، ولا يدخلها أحد إلا ويرتدي ملابس تشبه ملابس رواد الفضاء. كانت هذه الغرفة في عنبر العناية المركزة تحتكر شعاع الشمس الذي يزور العنبر كل يوم. كانوا يتحدثون دائمًا عن هذا الشاب الثلاثيني الأنيق، الذي يعمل في سلك القضاء، والذي لا يغادرها منذ شهور، يقتات على هذا الشعاع. أثناء أوقات الزيارة أشاهد فتاة جميلة تقف على باب هذه الغرفة، حدست بأنها خطيبته فى انتظار شفائه. شعرات بصلة روحية بيني و بينه، كلانا لنا أمل في النجاة، فقد كانت كل الحالات، عدانا، ميؤوسًا من شفائها؛ يجمعنا أن الموت حلق فوق المكان الخطأ، كنا نرتبط بهذا التحليق المبكر للموت فوق عش حياتنا الهادئ. كنا نحن الاثنان غريبَين و مختلفَين عن هذا المكان. ذات يوم وجدته خارجًا للتمشية في الممر الذي يقع أمام الباب المواجه لسريري، كان إبراهيم الممرض يقف فى مواجهته ويسحبه بأطراف أصابعه كأنه طفل صغير أو عروسة تتحرك بالخيوط. كانت حركة

أعضائه ميكانيكية من طول الرقدة على السرير، كان جسده نحيلاً للغاية، شبيهًا بهيكل عظمي، والشيء المدهش أنه أثناء مروره من أمام الباب نظر لي وابتسم ، فحييته ، فقد كان يعرف مكاني، ويبدو أنه أيضًا كان يسأل عن أحوالي يوميًّا.

كان العنبر مثل موسم طويل للبرتقال. تلك الثمرة المتوهجة داخل الصينية تفوح رائحتها وسط ثنايا روائح ((الديتول)) والكلور والبول الفاسد، كعطر طبيعى يقاوم تلك الروائح الصناعية. فكرتا الحياة والموت لهما رموز كثيرة. كانت حبة البرتقال المتلألئة في يد جاري، أكثر ما تذكرني بالحياة وصلابتها. القشرة الحية التي تشبه الجلد الآدمي اللامع في موسم تألقه في الشتاء. كانت طفولة ((سيدة البرتقال)) حاضرة بكل روائحها وفواكهها المفضلة وبرتقالها ومخاوفها. كانت تحلم وتنادي والدها. حتى يأتي لها ((بابا... بابا.. بابا))، وأحيانًا (papa ...papa). شيء يثير الضحك أو مرارة في النفس أن عالمنا وأحلامنا لا تتغير فيها أماكن النجاة وطلب العون مهما تقدمنا في العمر. بفضلها سيطرت رائحة البرتقال وأسواقه ومواسمه ولونه الأصفر على أحلام العنبر. طبعًا في تلك الأيام كنت محرومًا من الطعام والشراب، أتصل بالحياة عبر أكياس المحاليل، كان جاري في السرير رقم واحد ما زال يستقبل وجبات الطعام الثلاث، وبمساعدة علا، الممرضة التي حلت مكان إبراهيم نافد الصبر، يأكل ملعقة ويتكلم اثنتين، كالأطفال ، يريد دائمًا من يسليه ويشغله بالألعاب أثناء تناول الطعام. كانت علا تقوم بهذه المهمة على أكمل وجه، وبدون تذمر. كانت تسايره كأب لها، وتخترع له أسماء و

حكايات، وردودًا مبتكرة على أسئلة اللاوعي المفاجئة، ويبدو أنه كان مندهشًا من هذا الحوار ذي الخيال المجنح، فكان يأكل كل الطبق ولا يترك شيئًا. كان يريد أن يسمع صوتًا كالموسيقى التصويرية أثناء تناول طعامه. علا كانت لا تزال تحت التمرين و ترتدي ((يونيفورم)) أزرق فاتحًا خاصًّا بالمتدربات، ولها ميعاد ثابت في المرواح، ولا يسمح لها بالمبيت. عند خروجها تلبس النظارة السوداء المعتمة والبنطلون الجينز، ومن فوقه البالطو الأسود، وتخرج في حراسة هيئة جديدة مختلفة تمامًا عن هيئتها في المستشفى. كم كانت سعيدة طبق جيلي يدخل معدتي بعد ١٥ يومًا من المحاليل. فرحتها الشديدة أشعرتني بالقبر الذي كنت مستلقيًا بداخله طوال الخمسة عشر يومًا. كانت هناك شعرة بين الحقيقة منها قلبك. أي مشاعر في المستشفى مغلفة عادة بورق ((سيلوفان)). فى إحدى هذه الوجبات الحكائية بين علا ومريض السرير رقم واحد، شممت من سريري رائحة برتقال نافذة، كأنها تأمرني بأن أتبعها. طلبت منها أن تأتي لي بالقشر المتبقي من الوجبة. قربته من أنفي كالمدمن. كم كان الاختيار منقذاً. قال لي إبراهيم الممرض عندما رآنى أقرب قشر البرتقال من أنفي و أستنشقه بعمق:

- ليه بتعذب نفسك ؟

لم أكن أعذب نفسي، بل أسكِّن حاسة الجوع للحياة، و أتسامى بها بتلك الرائحة، و أيضًا بعين خيالي. كنت أرى الأشياء بعقلي الباطن، لذا كانت تبدو على غير ما تبدو عليه في الظاهر: السرير، ممرات

المستشفى، السينما الليلية. استيقظ عقلي الباطن ليعيد تشكيل عالمي الجديد، ويبث فيه طاقة غرائبية كنت أحتاجها لأتحمله. السديم مثقوب، زمننا الخاص هو ما يرتق هذه الثقوب، ويمنحنا هذا الخلود الهش والمؤقت كي نؤدي أعمالنا اليومية بدون تهديد، وكأنها خالصة من الموت والفناء.

١١

خاتم الزواج كان طوال الرحلة فى يد سلوى، كانت تحمل في يديها مسؤولية حياتين، وعند خروجي من العناية المركزة استعدتُ حياتي مرة أخرى ، وربما أول شيء فعلَتْه في الغرفة التي انتقلتُ إليها أنها خلعَت خاتمي من إصبعها وألبستني إياه، كأننا في لحظة زواج جديدة ويجب أن أحمل مسؤوليتي عنها. استرددت نصيبي الضائع في الحياة، والذي أهَّلني، من قبل، لحمل هذا الخاتم. ليس هو السِّنَّة الذهبية في فم ميت، إنه أكثر من كونه ذهبًا لا يفنى، لأنه يرتقي سلم المعادن النبيلة، إنه حياة تدور وقائعها عبر رمزيته. معدن الذهب سيبقى بعد أن يرث الله الأرض، وتتحلل البشرية، وتتحول إلى سماد لأرض خاوية، سيبقى عندها الذهب طافيًا على سطح الأرض، يعكس أشعة الشمس، ويَرى الله فيه صورته في أبهى شكل. سيعكس نصيبنا من الذهب جزءًا من صورة الله. هذه الحلقة الذهبية مثل كل الحلقات التي تمنح حياتنا صورة الديمومة ، لا بداية أو نهاية لها، حتى ولو ذابت أصابعنا وانسحبت منها في هدوء. حياتنا نفسها كحلقات متنامية، لا تعرف عند أي نقطة حدث هذا التداخل بين هذه الحلقات، ولا في أي زمن سيأتي الساحر ليفض هذا التشابك، ربما ساعتها سأحزن وأنا أرى حياتي، أو

حلقات حياتي، أبسط مما كنت أتوقع، وخروجها من الحلقات الكبيرة المربوطة بها، أيضًا أسهل بكثير مما توقعت. إنها لعبة الساحر المفضلة، لا تعتمد على الصورة الظاهرة للعيان، بل على المعجزة، أو أن داخل الصورة الظاهرة للعيان خدعةً ما، فجوة في دائرة الحياة نفسها تسمح بالهرب والتحلل من أي قيد. لم أكن خائفًا من الموت الذي بدأت أسمع بوضوح دبيب أطرافه فى جسمي، بل آملٌ فى الحياة. كنت أرى نفسي كأني أغوص في مياه عميقة، وكلما ازددتَ نزولاً زادت برودة المياه وتجمدت أطرافي. كان هناك ظل لجسدي مطروحًا على رمال الأعماق. ظلت المسافة بيني وبين هذا الظل ثابتة، وربما لو دققت فيه لكان هو التعبير الصوري عن الموت. ظللت على مسافة مع هذا الظل، كروح ((الكا))، التي تحلق فوق الجسد في الحضارة الفرعونية. كنت في هذه اللحظة الرقيب على حياتي، أرى الموت بدون أي خوف، ولكن محتفظًا بالمسافة الحرجة كي تستمر حياتي، ولا أقع بكاملي في دائرة جاذبيته، وربما كانت كل المياه التي أغوص فيها هي دائرة نفوذه! ظلت المسافة مع ظلي القابع في قاع المياه، لم تتغير. كل منا لا يريد لهذه المسافة أن تتغير، المسافة التي ينظر عبرها كل منّاً للآخر دون رغبة في امتلاكه، لا أتملك موتي، ولا موتي يتملكني، مسافة احترام وتقدير تسامح بسريان تيار الحياة وتجدده. برغم هذا القُرب، كان كل منا ينتمي لزمن لم يَحِن الوقت بعد لكي يلتقيا. كنت أثق في جسدي بأنه ما زال يمتلك عنادًا يمنعه من السقوط السهل. في حياتى العادية، عند ما جاوزت الخمسين، كنت أراقب تحولات في هذا الجسد وخشونة في بعض حركاته، كنت أنصت له، كأني أسمع صوت هذه الأعضاء عن قرب، كنت أجرب شكلاً جديدًا من الحياة له إيقاع مختلف. ماكان

يعطل تقدم العمر و ((فيونكة)) الزوال التى تزينه، هو هذا التفتح العارم، كزهرة متوحشة، على كامل تاريخ الأعضاء، والنفس التي أشرقت ضد الزوال. كانت هذه الزهرة المتوحشة تبلع في طريقها بتلات الموت التي كانت تُلقي تحية تحت أقدامها كل يوم. الموت تلك النسخة السالبة من الحياة، التي لا نراها كوننا مشغولين بالنسخة الموجبة، والتي تولد معنا وتنمو وتكبر. فيلحظة كان الموت والحياة ككفتين، لا تنفع أي إرادة أو أمل في تحريك أو ترجيح إحداهما على الأخرى، ولكن في لحظة تميل كفة الحياة بما يحتويه هذا الجسم من رغبة في البقاء، بدون مجهود يذكر، فالمجهود أو الإرادة، داخل هذه الدائرة، لا قيمة لهما. لقد تعدَّى الجسم مقوماته وعناصر بقائه، وأصبح خفيفًا خفة المسلوب. لم أشعر برغبة في المقاومة أو في فرض إرادتي على الموت. كل ما كنت أقوم به كان يتحرك من وراء العقل، لم يعد هناك معنًى لكلمة إرادة، إلا إذا كانت هذه الإرادة ذائبة مع سوائل الجسم وتسير في مساراته وتؤمن بديانته، وتضخ طاقتها في فجواته الميتة، أو التي على وشك الانطفاء. الموت لا يمكن أن يقاوَم في ذاته، هو جزء من روح الله، ولكننا ببساطة نحب الحياة، الخلود حتى ولو كان تكرارًا بائسًا لدورات حياتية، لأننا نتجنب تلك الطفرة الكبيرة في جينات عاداتنا لو متنا. ربما أكثر ما نفعله أن نقترب منه بشتى الطرق، أن نشعر بتلك الجاذبية الباردة وطعم المعدن في الفم، أن نكتم أنفاسنا لعشر دقائق تحت الماء، أو ننام في تابوت فرعوني فارغ ونترك للصدفة مهمة تحريك الغطاء الحجري من فوقنا. موتنا جزء من خلود الله، وذاكرتنا هي أثره القوي، فلن نحضر النهاية لنعرف، ربما هي غير موجودة، إلا فقط في ذاكرتنا.

هذا الجسم، وتاريخه الذي اقترب جدًّا من النهاية، انحرف في آخر لحظة وأخذ طريقًا آخر. في هذه اللحظة بدأت النسخة السلبية في التواري، والدخول تحت النسخة الموجبة، ولم أعد أرى هذا الظل الممدد في رمال الأعماق، بدأت أطفو وأتنفس هواء حياة جديدة، ولكن لا أنسى أبدًا هذا السكون الجليل الذي كانت تحدث فيه هذه المقايضة، وأحد اختبارات الحياة الكبرى، كالسكون الذي خرج منه آدم، وكالسكون الذي يجعلك تتماس بقلبك مع قلب العالم، دون أن تشعر بأنك ذائب، ولكن كامل الحضور والإنصات، وأن الكل يشهد لحظة الخروج من الظلام إلى النور. كان يمكن أن تكون الرحلة في الاتجاه المعاكس، ولكن لم تخسر الحياة جولتها هذه المرة. في بعض الأوقات كنت أتحسس تراب مقبرة العائلة الرطب تحت جسمي، ورائحته تملأ أنفي، كنت أحج عبر سفينة التراب حيث ترقد أمي، وأبي. أشم عن قرب رائحة القماش الذي يغلف قفل الباب الحديدي للمقبرة، الذي علاه الصدأ بعد عدة شتاءات لم أزرهما فيها. أتخيل لوحككت ظهري سيتناثر هذا الرماد الآدمي الرطب على السرير، تنتشر من حولي رائحة جذور شجرة الصبار المزروعة فوق مقبرة أمي. أراني كتلة بيضاء محمولة، والمكان فارغ من حولي، ولكنه ليس موحشًا، الفراغ هو الذي سحب الوحشة من المكان، الوحشة تأتي من تداخلنا الزائد وغير العادل مع مفردات الحياة وصورها، لأننا سنغادرها يومًا ما. كنت قريبًا جدًّا من هذه الصورة النهائية لمسيرة الحياة . لم أكن في هذا الوضع، أو لخيالي، يمكن أن أجترح صورة جديدة، صور الحياة جميعها كانت مشوشة، وليس لها زوائد أو أطراف لأتعلق بها، أما المقبرة فقد كانت الصورة القديمة الشبحية الملساء التي تعيش في دولاب ذاكرتنا، بدون أن

تتجسد، كصورة الزواج وصورتنا ونحن صغار عرايا مقلوبون على بطوننا تحت بقعة خالدة من ضوء المستقبل. لم أشعر بأي حسرة على أي شيء، كنت أبحث عن مكان، ولو رمزيًّا، يحتوي هذا الألم وهذه المخيلة التي كانت تتمدد باتجاه الجذور . كنت اجازف وأضع الموت في مأزق كوني ، بأن أرحب به دون وجل، وأعري جزءًا غاليًا وعزيزًا من حنانه ! ربما أيضًا كنت أستنزف مخيلتى من آثاره، كأثر حروق المكواة على تلك القماشة الشفافة التي كنا نستخدمها في بيوتنا في كي الملابس ، تعلق بها رائحة الملابس المكوية والحروق وتشبه مع الوقت لفائف إحدى المومياءات المكتشفة حديثًا . ستظل رائحة الموت عالقة بجسمي و أنفى كوني اقتربت منه لدرجة جعلتني أشم رائحة التراب الرطب لمقبرة العائلة ، هذا الرماد اللحمي المنثور تحت شجرة الصبار، والذي أصبح مومياء لذاكرة العائلة .

كلما آوحشتنى أمى كنت أذهب الى قبرها و أظل أتحداث معها ، وأنقل لها أخبار الدنيا الهامة. أتحدث معها في الآخرة كما كنت أتحدث معها في الدنيا ، مفتتحًا حديثي بـ ((إزيك يا حاجة ؟)) . بالرغم من أنها لم تحج ، إلا أنها كانت أمنية لها ، وعند بلوغها سنًّا متقدمة بدأت أشعر بالكلمة تخرج من فمي تلقائيًّا ، وهي اللحظة الفعلية لانقطاع حبل المشيمة عند الرجال . عند هذه اللحظة منحتها لقب ((الحاجة)) ، ربما لأهبها القدرة على الطيران، وأجهز لها رحلة الحج للعالم الآخر، والتي استمرت عشر سنوات كاملة. كانت فرحة باللقب الجديد، بكلى ما يحمله من وداع واستسلام ويقين. عندما أقف على قبرها، لا أعرف هل هي موجودة وتسمعني أم لا. بالرغم من إيماني بأن الروح أكبر من

أي شيء في الدنيا، وأنها خفيفة وهشة وغير مرئية، ولا يمكن لها أن تتقيد بمكان صغير كالقبر، إلا أنى لا أجد إلا هذا القبر لأتحدث معه ، وأقف عليه لأشعر بقربي من أمي. مع الوقت يُلزمنا القبر بعادات ، يصبح بيتًا جديدًا لمن رحلوا، أو ممرًّا العالم آخر. هذه الكتلة الأسمنتية المكسوة بالرخام تقض مضاجعنا ، بملمس الرخام البارد، بتاريخ الوفاة الذي يتصدر الواجهة، تماماً كعنوان البيت. يفصل الرخام بين عالمين، ليصنع مفارقة بلاغية مع الموت. يصر حارس المقبرة، عند زيارتي، بأن يأتي بسطل كبير مملوء بالمياه ويهرقه على القبر وعلى شجرة الصبار بجواره. أشعر عندها برعشة فى جسدي، بينما الماء يتسرب أسفل هذه الكتلة الرخامية. على مقربة من قبر أمي يقع قبر أبي، الذي أوصى بدفنه بجوارها. وأنا ذاهب لزيارتهما كأني في زيارة عائلية، أقف هنا قليلاً ثم أذهب لهناك، كأني أربط بخطوي المسافة القصيرة التي تباعد بين قبريهما فى الآخرة. فى تلك المسافة الفاصلة عادة ما تنمو بعض الأعشاب البرية ذات الزهور الصفراء. أنبِّه على الحارس بأهمية إعادة الترميم للسور الخارجي وإزالة هذه الحشائش وتقليم شجرة الصبار. أتساءل دائمًا عند زيارتي لهما، التي تكون عادة في فصل الشتاء: هل يكفي الموت ليكون هو نفسه حاجزًا لأى طارئ دنيوي كالمطر والكلام والضوضاء؟

لم نكن لنتكلم عن الموت لولا أن كان لنا أصدقاء، أمهات، آباء، وإخوة، ماتوا ومنحونا خبرة حية عن هذا العالم. ليس عن هذا العالم فقط، بل عن هذا العلم القديم العادل الذي يتسع لكل البشر، ولا يستثني أحدًا. سنة بعدَ أخرى نزداد خبرة بالموت، الخبرة التى ستصلك

فى حركتك أو في عزلتك, بدون أن تبذل أي مجهود. في الحركة تزداد احتمالاته، لزيادة فرص نسيانه. وفى السكون تزداد احتمالاته أيضًا، لأنه يكون حاضرًا طوال الوقت، لأنه جزء من عالم السكون. كثيرون حلموا به، و توقعوا الصورة التي سيموتون عليها. ربما لم تصدق أحلامهم، أو صدقت، ولكن في كلتا الحالتين لن يروا الحلم وهو يتحقق ويرووه لنا، لأنه لن يتحقق إلا بعد أن يكونوا قد غادروا الحياة. ولن يروا موتهم شاخصًا ويطل عليهم من عيون الآخرين. الأحلام هي وسيط لرؤية الموت، وأحيانا لا يكون الحلم شخصيًّا، فالأحلام تعاني مثلنا من العزلة فتبحث عن شريك لها، عن وجه لقريب أو لحبيب أو لمجهول لتلصق به النبوءة، ذلك الرمز الذى يختفى وراءه الموت. فالرمز يجعل الموت مبسطًا ومقبولاً وسط هذا العالم الحلمي. أحيانًا يظهر الموت في صورة وجه، نعرف مَن هو من أول وهلة بالرغم من أنه قادم من خارج محيطة رموزاً، والوجوه المألوفة لنا نعرفه بتلك المعرفة الباطنية كالأمومة: ((أخيراً أنت)). كما حلمنا بأننا نموت أو نغرق. نستمتع بأحلام الموت ورسله المجهولين، لأننا في مستوى آخر من الحلم نعرف بأننا ما زلنا عائشين. لحظات وثوان نتأرجح فيها على حبال ذاكرة الحلم وعلى وهمه. تميل إحدى الكفتيَّن، فنفرح بالموت لأن هناك حياة تنتظرنا عندما نصحو، ونفرح بالحياة لأن هناك موتًا مجازيًّا قد أفلتنا منه. في الحالتين الذات ساهرة تراقب فناءها وصحوها، كصديق قديم تقابله في الحلم، نلاقيه بابتسامة وبتواضع وباستسلام، وننتظر منه أن يضمنا أيضًا بابتسامة وبتواضع وباستسلام. الموت في الحلم خفيف وشفاف، أما في الواقع فثقيل ومعتم. ارتبط فى خيالنا وأفلامنا بضوء ساطع يغمرنا، بصحراء مترامية الأطراف ولا نهاية لها. حتى ولو كان لها

حدود، فحياتنا داخلها لن تبلغ هذا الحد أبدًا. في فيلم ((كل هذا الجاز)) للمخرج الأمريكي ((بوب فوس))، جاء الموت للبطل أثناء إجرائه عملية خطيرة في القلب، جاء على هيئة امرأة جميلة. ارتبط الموت بلذة الجنس، بتلك الدعوة الأبدية للخلاص عبر الاتحاد بآخر، أيًّا كان هذا الآخر. دعوة مضاعفة للحب وأنت تغادر العالم، كأنك تترك رسالة أو ديانة جديدة. وفي فيلم يوسف شاهين ((حدوتة مصرية)) أيضًا يأتي الموت للبطل وهو يجري عملية جراحية في القلب، ولكن هذه المرة يأتي في شكل طفل صغير، ربما يرمز للذات أو ((الآخر المقموع)) داخل البطل، والذي يحتاج دومًا للتحرر والظهور في العلن. في الفيلم الأول تترك النهاية مفتوحة، ولكنها توحي بموت البطل واتحاده بهذا الآخر. وفي فيلميوسف شاهين ينجو البطل عبر تحرير هذا الطفل الذي داخله. الموت عند شاهين تجربة اجتماعية تتعلم فيها النجاة. فالموت نوع من العلاج، وليس خلاصًا فرديًّا كما عند ((بوب فوس)).

اللون الأسود هو اللون الذي يختاره رسول الموت عادة، من طائفة الألوان، ليعلن عن نفسه في دنيانا. ليس هناك موت لونه أبيض، أو أحمر، أو برتقالي إلا في الأحلام. في فيلم ((الختم السابع)) للمخرج السويدي ((إنجمار برجمان))، يأتي الموت صريحاً وواضحًا بشحمه ولحمه. يحكي الفيلم عن الفارس السويدي العائد من الحروب الصليبية، ليجد بلاده في قبضة الموت بعد انتشار الطاعون والمجاعات فيها. يقابل الفارس رسول الموت ذا الملابس السوداء التي تغطي كل جسمه ولا تترك إلا وجهه الأبيض العابس. يتعرف عليه البطل بدون

جهد، ويطلب منه أن يلعبا دور شطرنج على حياته، حياة البطل بالطبع. ربما يعرف في قرارة نفسه بأنه خاسر لا محالة، فقط ليطيل زمن بقائه في الحياة. وللمفارقة أيضًا يختار رسول الموت القطع السوداء، حتى لا يلتبس اللون ورمزيته ويختلط بمكان الحياة - وقطع الشطرنج البيضاء - الذي ما زال يشغله حتى هذه اللحظة بطل الفيلم.

١٢

كانت تجربتا السجن والموت، فيما مضى من عهد الشباب، من التجارب الأثيرة بالنسبة لي، كنت أجد فيهما، نظريًّا، أقصى درجة لاختبار الوعي، وهل هو حقيقي أم زائف. كنت أنظر باحترام وتقدير شديدين لكل المسجونين السياسيين، أرى فيهم تلك العلامة الإنسانية على التحمل والتضحية، والتطابق مع الأفكار، التي دفعوا من أجلها حياتهم. فالسجن من ضمن تجارب الحياة القوية لتكتشف معدن أفكارك، فداخل هذا الجو المتقشف في كل شيء، الثراء الوحيد هو قدرة الذات على أن تثقب عزلتها وتحلِّق. السجن هو المكان الذي تنزع فيه شخصيتك القديمة، والقشرة المزيفة لأفكارك، لتقابل الشيء الجوهري الذي بداخلك. وقد يكون هناك أشخاص ليس لأفكارهم بُعد آخر، وليس لذواتهم مساحة أخرى يعيشون فيها. كنت أشعر بأنني، بعدم تعرضي للسجن وسلب حريتي الخارجية، لن أكتشف نوعًا آخر من الحرية الداخلية، وأنني لم أتحرر بعد من الداخل. كان هناك شيء قهري يملي عليَّ تجارب المستقبل. كانت تجربتا السجن والموت، أوكل أشكال معايشة الموت أثناء الحياة، عبر أشكال جديدة من الحياة والتفكير والانهمام، وبكل أشكال المخاطر الممكنة، هما تجربتَي

الخلاص الأساسيتَين، كنت أفكر فيهما كنافذة مفتوحة على تجربة واسعة ووجود جديد متخلص من عيوب وسوعات الوجود السابق. بشكل ما تدفع حياتك لميلاد جديد بعد أن فاتك أن تكون مشاركًا في ميلادك الأول. لم أجد أقوى ولا أرفع مكانة من الموت والسجن كي يحوزا شرف هذا البعث والميلاد الجديدين للكائن الذي هو أنا. كنت أنظر لـ((كراسات السجن)) لـ((جرامشي)) بإكبار، وكذلك ((مذاكرات برجوازى صغير)) للكاتب الفرنسي ((ريجيس دوبريه)) كانت نقطة تحول فى غربلة الوجود وطرد الأفكار الخفيفة واستبقاء الأثقل. سافر لبوليفيا عام ١٩٦٧، وهو في السابعة والعشرين، ليلتحق بـ((جيفارا)) ويناضل معه. يتم القبض عليه ويسجن. داخل السجن، الذي قضى فيه أربع سنوات، قبل أن يفرج عنه بعد حملة عالمية، بدأت مرحلة المراجعات ونقد الأفكار، والبحث عن الجوهري تحت مجهرَي العزلة وسلب الحرية، وهو ما يدونه ((دوبريه)) في هذا الكتاب. السجن يضفي صبغة صوفية متسامحة على الذات، ويجعلها ترى أفكارها وحياتها بأكثر من منظور. يقسم هذه الذات الكلية إلى ذوات صغيرة. فداخل السجن اكتشف ((ريجيس دوبريه)) طبقات أخرى كامنة تحت القشرة الخارجية لأفكاره. كأن الإيمان السياسي بمجموعة من الأفكار التحررية ليس هو النهاية، بل إنه فقط وسيلة مؤقتة للفهم ولوضع الأساسات لأي ذات. لكن أحيانًا قد يطول زمن هذا الإيمان، ويتحول لعقيدة جامدة، بسبب الظروف المحيطة الثابتة، والتي تجعلك ترى الحياة بعين واحدة، بعين هذه العقيدة الثابتة. المراجعات التي قام بها ((ريجيس دوبريه)) لأفكاره، وهو داخل السجن، جعلته يحرر هذه الأفكار التحررية، التى سُجن من أجلها، من جانبها المأساوى

والمميت، ويتبنى أحيانًا أفكارًا مضادة لها. فالسجين ليس فقط أضحية، إنه مسؤول عن إنقاذ نفسه، وليس خيانتها. يعطي السجن تلك الفسحة للتفكير خارج ضغوط الجماعة السياسية، والإنسانية بشكل عام، ليتكون ذلك الإيمان الأخر بنفسك وبالآخرين. يستعرض في مونولوج داخلي طويل، ويعبر بكل رموز الروح وأفكارها الماركسية وكل منعطفاتها الدينية، السياسية، الفنية، السينمائية، والفلسفية، يستعرض شبكة الأفكار العنكبوتية التي نسجت خيوطها من حوله، وشكَّلت وعيه، وها هو الآن يريد أن يقطع هذه الخيوط، ليمنح لفكره ولحياته أصالة التغيير والفحص والتبديل. أحيانًا كان المونولوج، مع ذاته الأخرى التي انبثقت في ظلام السجن، يأخذ شكلاً تعليميًّا أو تبشيريًّا، كأنها أولى المؤمنات برسالته الجديدة التى اكتشافها في ظلام السجن، ولم يجد غيرها لينشر دينه الجديد. خرج ((ريجيس دوبريه)) من السجن وهو أكثر قوة على مواصلة الحياة والكتابة، والازدهار الشخصي. لقد كانت فترة سجنه هي فترة ولادة حقيقية.

كانت لي ملاحظات على تجارب السجن العربية، ما تم تدوينه منها، في سجن الواحات في فترة الستينيات، أو في سجن ((تزما مارت)) المغربي في بداية السبعينيات. وجدت أنها لم تكسر جوزة الوجود الداخلي لينسل هذا السائل الحليبي الأبيض الذي لا يخرج إلا تحت ضغط الحرية والتحرر الداخليين. أغلب هذه التجارب كانت تخربش على سطح هذه الجوزة، على الأقل فيما قرأتُه أو استلهمَته السينما. في فيلم ((عودة الابن الضال)) ليوسف شاهين، هناك شخصية محورية، وهي شخصية علي السجين السياسي، ابن تلك العائلة الثرية التى

تسكن الريف، والذي عايش هزيمة ١٩٦٧ وتأثر بها، والتحق بالعمل في المدينة كمهندس في أحد المشروعات. هناك سيتم توريطه والتغرير به، وسيجد نفسه مسجونًا، بعد أن اتُّخذ كـ((كبش فداء)) بدلاً من آخرين من أصحاب النفوذ، هؤلاء الذين قاموا بالغش في مواد البناء، ما أدى لسقوط العمارات التي بنوها. الجميع في القرية كان ينتظر عودة علي من السجن، والجميع أيضًا كان يحفظ ذكرى لعلي، كلمة، حادثة، أو موقفًا يجمعه به. كان علي هو الابن البار والنقي لهذه العائلة، بالقياس بأخيه طلبة. كان نصيراً للعمال، وصاحب الميول السياسية ذات النزعة الإنسانية والمساواة. حتى الأجيال الجديدة في العائلة، والقرية بشكل عام، والتي كبرت وهو ما زال فى السجن، كانت تنتظر عودته، ليغير ويثور على تلك الأوضاع الظالمة التي أوجدها طلبة، الأخ الكبير لعلي، وغير المتعلم، أثناء غيابه في السجن. عاد ولكنه لم يكن علي نفسه قبل دخوله السجن. داخل السجن ولدت له شخصية جديدة، ويوماً بعد آخر، ذوت تلك الأحلام والآمال التي كانت معقودة عليه من الجميع، من الجيل الجديد، ومن حبيبته، ومن العمال. لقد غيَّر السجن والهزيمة. من شخصيته. جعلاه ينظر أكثر بداخله، ويميل للصمت الطويل، ولا تثيره تلك الأوضاع أو الأفكار التي كانت تثيره من قبل. لقد انطفأ الحلم تمامًا داخل السجن. هناك سجين سياسي آخر فى رواية ((تلك العتمة الباهرة)) للروائي المغربي الطاهر بن جلون، والتي تجري أحداثها بداية من عام ١٩٧١. الكتاب توثيق روائي لحياة أحد المسجونين السياسيين الذين كانوا يعملون بالجيش، وغُرر به أيضًا من قبل قياداته، في الانقلاب الذي قام به الجنرال أو فقيرضد الملك الحسن السادس في قصر الصخيرات.قضى هذا السجين قرابة العشرين

عامًا، مع زملائه، في واحد من أقسى السجون المغربية، وهو سجن ((تزما مارت)). ثلاثة وعشرون سجينًا يعيشون داخل زنزانات صغيرة، يأكلون ويشربون ويقضون حاجتهم في الظلام، ولا يخرجون للنور إلا لو مات أحدهم. عندها يخرجون لدفنه والصلاة عليه. خلال العشرين عامًا، لم يتبقَّ من تلك المجموعة سوى ثلاثة أحياء فقط،من بينهم بطلنا السجين السياسي. يخرج من السجن وقد تغيرت شخصيته تمامًا، يريد أن يقول لكل من يراه، إنه ليس الشخص القديم. داخل ظلام السجن غالبًا ما يحدث ميلاد جديد، وهو نفس ما حدث مع علي بطل فيلم ((عودة الابن الضال)). لا يعني الميلاد الجديد أنه الميلاد الأفضل أو الأنقى الذي تم تكريره في ظلام السجن، ولكن القدرة على الاستمرار حيًّا داخل هذه الظروف الصعبة هي شهادة الميلاد الجديدة. سيحسب كرقم جديد في موسوعة التحمل الإنساني. تقطع الذاكرة علاقتها بالماضي من أجل أن تعيش الحاضر، مهما كانت قسوته، فهو مادة الحياة اليومية، أو هو الحياة نفسها بالنسبة للسجين. طبقًا لمواصفات هذه الحياة وقسوتها، وقدرة النفس على التحمل، تتغير شخصية السجين. سجين ((تلك العتمة الباهرة)) كان يداوم على صَلاته باستمرار داخل السجن. الصلاة كانت تنقله لمكان أوسع، يلتقي فيه مع الله مباشرة، أو مع هذا الآخر الذي يعيش بداخله والذي أخذ سمت العبد في علاقته بالله وبحريته أيضًا. داخل السجن هناك اكتشاف، قد يكون نقطة للأمام، أو نقطة للخلف. بطل يوسف شاهين من هذا النوع الأخير، لقد جعله السجن مكسورًا و محطمًا، لم يكتشف مكانًا أو ذاتًا أوسع داخل هذا الظلام، هو أكثر تجسيدًا للمسجون السياسي ذي البعد الواحد، الذي لم تتعمق أفكاره السياسية، ولم تتحول لأفكار إنسانية

أكثر شمولاً كما نجدها في ((مذاكرات برجوازي صغير)). فخرج من السجن وهو مسحوب من رصيده الإنساني، وأكمل رحلة سقوطه وانهياره اللذَين بدأهما في هذا الظلام.

لقد عاش الموت داخلي بصور عديدة، وله كرسي فارغ محجوز فى صالة سينما ذاكرتي. كنت أقترب من كل تجارب الفناء، بل وتغريني هذه البذرة الكامنة بداخلها، التي يمكن أن تجعل الوجود يتمدد ويلامس آخر بداخله، لا يمكن للحياة أن تمنحه بسهولة، ولا يمكن أن يظهر ويصبح ملموسًا إلا عند هذه الدرجة من الانصهار الوجودي. آخر كان مخفيًّا وراء هذه التجارب الحياتية الكبيرة. هل كان سلب الحرية ثم سلب الحياة طريقين للقاء هذا الآخر، أم كانا قتلاً له ولكن بلباس حديث؟! لا أعرف حتى الآن إجابة عن هذا السؤال، لأني أستبقي المتعة التي كنت أحصل عليها عندما أقترب من مجال جاذبية هذا الآخر الداخلي، وعبر تجارب حياتية مشوقة. الآن، بعد عبوري بأعراض وخيالات تجربة موت حقيقية لم أشعر بالميلاد الجديد، الذي كنت أعتقده في مثل هذه التجارب، أن التجربة تنفض الوجود وتفصل بين أحجام من الحصى والزلط والرمال. لم أبدأ من نقطة جديدة تنسيني ماضي هذا الوجود. عاد الموت واستُوعِب في الذاكرة، وشغل هذا الكرسي الفارغ الذي كنت أحلم بحضورِه فيه! ربما الذي اختلف هو ترتيب الأولويات بين الحياة والموت، وإعطاء الحياة الأولوية الطبيعية. بالرغم من عادية هذا الكلام، ولكن هي الاستفادة الوحيدة الممكنة ممَّا حدث، أن تختبر الموت لتعرف معدنه، وتنزله من علياء تجريده إلي سفح تشخيصه. بعرض الموت نفسه عليك في استعراض كرنفالي

لتعرف أن عشرته ليست جيدة، وأنه ضيف ثقيل، ولن يمنحك ثراءً أو نضجًا، بل سيمنحك جزءًا من فنائه، لأنكما غريمان. ربما أصبح أحد العناصر الخام في جسد الخليقة الأول، ثم اكتسب نشاطه بعد أن أخذ طريقه وسط حقول الحياة والبشر رافعًا منجل الحصاد. ربما الاستفادة هى التحديق بعين جسد مفتوحة في عين الموت، وعدم منحه جمالاً ليس فيه، الخوف منه كان من قبل القناع الجميل الذي يغطي به الموت وجهه، وعندما تقترب منه وتنزعه عنه، لا يتدخل ولا يدافع عن نفسه، كونه كيانًا هشًّا بلا دفاعات أو حصون. ترى دمامة هذا الوجه أو الجمال الذي لم تعرف مقاساته بعد. ربما ليس ذنبه، فلقد خلقه الله غير مرئي، كالملائكة، إلا في اللحظة التي لا يسمح فيها بالتعبير عنه. كثيراً ما كنت أفكر فى هذا الكيان الذى يكبر فى عقولنا، ويبنى له مدينة لا يسكنها سواه. أتخيله النجاة والتخلي الكامل عن الحياة قبل أن يأخذ مرتبة التجربة الكبرى للحياة بجانب تجربة السجن. كان في هذا الانسحاق أمام الحياة معنًى آخر، هو الموت، أو الراحة اللامسؤولة، كأني أتصل بالراحة عبر نفق سريٍّ لا يعرفه ولا يعرف شفرته إلا أنا. كنت أعبر بفنائي في غياب الآخرين. أخذ هذا السفر الوهمي المتكرر لوادي الموت الفسيح، يحفر مكانًا داخل النفس، كتوأم للفناء، و عند ما حضر الموت بكامل هيئته بدأ فى التعرف، داخل هذا الجسد، على توأمه السابق عليه في الميلاد. الموت تجربة غير مكررة، ولا توجد أي تجربة أخرى مجازية يمكن أن تحل محله. الحياة بكل ما فيها أبناء قُصَّر للموت لا يحلون مكانه ولا يرثونه.

كنت أخشى أن أخذل سلوى وأترك لها الحياة منفردة. موتى يعنى تخليًا

عن كل ما بنيناه بصمت و اتفقنا عليه بصمت، بشكل حياتنا و اختياراتنا. الصمت كان أحد رسلنا. كنت أستغرب أن يكون هذا السرير، وهذه الغرفة، المكان الأخير الذي أودع فيه سلوى. وداعنا الذي أعددت له طوال حياتي إخراجًا مختلفًا، أقل درامية من هذا، بدون معرفة أي منا بأنه وداع. كانت الحياة في تلك اللحظة أكبر مني بكثير.

١٣

كنت أخشى أن أترك سلوى وحيدة. حياتنا معًا أخذت تفرعات عميقة في الروح، كأنه زلزال صنع صدفة جغرافية سعيدة لروحين، لصخرتين عالقتين فى الأعالي، غيابي عن الحياة كان سيعرض هذه الطبيعة وهذه الصدفة التاريخية للخطر ولتصدعات جديدة قد لا تجد الصدفة الجديدة التي تحفظها. قلت لها تحت تأثير راحة المخدر إن هذه الحياة الجديدة ليست لي، ولكنها لها، وإن الحَجَرة العثرة الكبيرة التي كانت تقف فى مسار الحياة قد زالت، و كل ما سيأتي سيكون جريانًا حرًّا بدون عوائق. قلت هذا وأنا قريب من الموت، جالس على كرسيه الاعترافي المريح، لمحت خضَّة في صوتها، فقد كانت تعتبر أن من يقف في مكاني لابد و أنه يرى المستقبل، قالت:

- تقصد أنا، ولَّا إحنا؟

كنت أريد أن أترك لها ما تستحقه، فربما أعبر للجهة الأخرى بدون أن أسلم عليها. حياتنا معًا هي السلام. وربما الغياب بدون وداع هو الوداع الحقيقي الذي يليق بالباب الكبير الذي نخرج منه. كل ليلة

وتحت تأثير المخدر كنت أمنحها اعترافًا كاملاً عن حياتي، حياتنا معًا. عن السعادة والذكريات والتفاصيل التي أخذت تتراكم وتملأ تلك الزوايا والممرات والشوارع في مدينة حياتنا. كنت تقليديًّا، كمن يتهجَّى لأول مرة، في استقبال الموت ووداعاته. لا يفيد مع الموت إلا أن تكون تقليديًّا، تستقبله في صالون وداعك ببدلة كاملة، وتحتفي به لأنها المرة الأولى والأخيرة التي ستقابله فيها. أردت وداعًا صامتًا، أحمله معي أينما ذهبت بدون أن يفسد، مثل الخبز والأطعمة التي كان يحملها الميت في مصر القديمة في رحلة البعث والخلود. كنت أريد أن أترك لها اعترافًا وثقة ربما تعينها لو تركتُ الحياة. في لحظة لم تكن تهمني حياتي بل حياتها. تذكرات والدتي قبل وفاتها، وكيف كانت تطلب منى ألَّا أعمل عزاءً لها في البيت حتى لا يأتي المُعزون ويسببوا ارتباكًا في نظام حياتنا اليومي، أنا وسلوى، قد يأخذ وقتًا في إعادته على ما كان عليه. هذه واحدة من حكايات طويلة تلخص جميعها كيف كانت ترتب لنا الحياة، بعد وفاتها، كأنها ستكون بالقرب منا، تستمتع أيضًا بنظافة ونظام هذه الحياة التي تركتها ! في حياتنا العادية دائمًا ما أتأمل تلك التفاصيل الحياتية التى تجمعنا، وأحدث نفسي ساعتها بأنني سوف أضيفها لتلك الرواية الكبيرة التي سأكتبها عن حياتنا معًا. مثلاً تلك النقطة في الظهر، التي يجري تحتها نهر من الضحكات، عندما تصل لها أصابعي تنفجر في الضحك ! أحد فصول هذه الرواية سيخصص ((للهواء)): تلك اللحظات الخاصة، أثناء سيرنا، أو مرورنا في سياقات الشوارع المزدحمة، في الأماكن الأقل رومانسية عن أن تولد أحلام يقظة، وبدون سابق إنذار؛ تخرج تلك الجملة الحالمة من سلوى: ((أنا شَامَّة ريحة صحرا))، أو ((أنا شَامَّة

هوا رحلة)). جملة ليس لها توقيت، أو دوافع، تأتي كرؤية الحالم، كأنها جملة من زمن آخر محشورة داخل سياق الكلام العادي. الجملة التي تقودك لتتبعها كالمنوم، وتحققها، لأنها أتتك بدون أن تجهد في حضورها، لذا وجب أن تسلم لها القيادة. هذه الرائحة البعيدة التي تتشممها، والهواء البعيد للرحلة، غالبًا هو ما يقود حياتنا في أدق وأعمق مكانٍ لها، وهو الأمل. عندما نيأس من تفاصيل الحياة اليومية المملة، يهبُّ هذا الهواء البعيد، تتجسد الصحراء أمام أعيننا. يحركنا في حياتنا هذا الحدس ، هذا الهواء البعيد. هذه الحياة التي تشرئب، في لحظة فوقان ومقاومة ذاتية، كلاقط موجات. ترفع سلوى رأسها لأعلى وتسدد أنفها باتجاه هواء مدينة أخرى، لن نمس أرضها ولكنها ستحفزنا على السفر. بدون السفر، حقيقة ومجازًا، كانت حياتنا ستصبح مقيدة، معيشة بدون زمن آخر سوى الآخرة. السفر وهواؤه البعيد جعلانا ننظر بعين الآخرة بدون أن نحمَّلها عذاباتنا ومخاوفنا الشخصية. صدقنا أنفسنا أن حياتنا نفسها رحلة، بمعنًى أدق إيقاع رحلة، ملل رحلة، سعادة رحلة. في الرحلة نعيد ترتيب أولويات الحياة، نقرأ كتاب الحياة بطريقة معكوسة. استبدلنا الرحلة بالحياة. كان لكلمة ((الرحلة)) إيقاع محفز أكثر على الاستمرار. هذا الهواء الذي تتنفسه ذائب في إيقاع الهواء العادي، في ركن منه، في زاوية، في ثنية، فى انحناءة ذكرى، فى أخطاء العادات الموروثة: الأخطاء التي لها أنبوب دمع مسدود. هذا الهواء الذي تنفسه الذاكرة، كالجَمل الذى يجتر ذكرياته على شاشة كبيرة ليمنحها خلودًا معكوسًا، خلودًا يقتات على الأمل. كانت الصحراء هي المرشد كمنارة بحرية. عصارتها كانت تتدفق فى شرايين حياتنا، تمنحها سخونة ومثابرة الرمال،

حساسية القدم التي تسير على الرمال. الصحراء، هذا الجزء الرائق من الوجود، اليَتيم جغرافيًّا، مقطوع النسب. رائحة يُتمها هى ماكان يطارد حياتنا، ويرسل هواءه عاليًا من حولنا. كانت ثقتنا بها عميقة، فعندما نتشمم هواءها في يومنا العادي، فهو بمثابة رؤية، كرؤية الحالم والأنبياء. رؤية مصدقة لأنها آتية من جانب الصدق، من جانب اليتم. لا تزال من ضمن خططنا رحلات طويلة للجلف الكبير. أيام وأيام في صحراء عارية، لا نرى فيها إلا الرمال، نكتب فيها يوميات تشكل فصلاً من تلك الرواية المستقبلية. الرحلة عادة ما تؤجل أي صدام بيننا، هي المكان الجغرافي للمصالحة، لأنها تذيب المشاعر الفاسدة، لأنها خالدة، لأنها، أيضًا، يتيمة جغرافيًّا. ستارة أيامنا التي يزيحها دائمًا هواء أغنية عبد الحليم حافظ ((أنا لك على طول))، التي تخرج من شقوق شقق تحتاج إلى الأمل ولمن يقف بجوارها. عندها تكون الصحراء وخلودها ويتمها راكعين تحت عرش هذه الأغنية وحنانها.

تلك الرواية اللامرئية، أوالشفاهية، التي أكتبها في خيالي يومًا بعد يوم، ويبلغ عدد صفحاتها عدد أيام حياتنا. ربما لن يطَّلع أحد على هذه الرواية، ستكون دولاب ذكرياتنا الأصم. كانت علاقتي بسلوى تتعدى فكرة زوج وزوجة، وتتعدى فكرة الشجرة والفروع، أو السلالة النهرية الخالدة الممتدة، والتي يتناسخ فيها الوجود عبر الأبناء. كنا فقط نسخة وحيدة غير قابلة لمثل هذا الشكل من الخلود. كنا نعيش ونستهلك تناسخًا من نوع آخر، لا يحل في جسد آخر، أو في رمز ما، ولا يتحقق خلالهما، وإنما يظل يذكر بالفكرة الأولى. كانت علاقتي بها مثل نطقتين اتحدتا ولم تنقسما، وعطلتا خطوة من خطوات دورة الوجود.

بالرغم من أن الانقسام هو النذير بالموت والتلاشي، فإن الوحدة أيضًا تستبطن هذا الموت، ولكن بصورته الصافية كتدمير كامل ونهائي لا يتبقى منه شيء لهذه الوحدة التي لا يشغلها في قائمة الوجود والموجودات إلا الله! كلما اقتربنا من الله خطوة احترقنا. الوحدة تستدعي الموت، ولكن بصورته الحياتية أو المجازية كي تعوض به إحدى مراحلها الغائبة عندما تذوب وتنقسم وتتوزع في سلالة الأبناء، ولكن عندما حضر رسول الفناء، بشحمه ولحمه، تغيرت هندسة الوعي، وأظهر تلك السلالة الممتدة والكامنة فى الذاكرة، أبناءنا، أبناء الذاكرة. كأن الموت يحدث بأثر رجعي . كل ما فقدناه خارجًا كان له بديل فى الذاكرة، لذا موت أحدنا كان بالنسبة للآخر، أو لكلينا، عبارة عن طرقات مطرقة ذاتية في ثنايا الذاكرة تجتث أي ذكرى لنا معًا. ظهورنا معًا، بعد عبور الموت أو شبحه واختطافه لأحدنا، معناه عذاب لا يحتمله الآخر، أيًّا كان، بمفرده. لقد تعدت علاقتنا دورات الوحدة والانقسام التي تتفرع منها وتنتج مشاعر الفقد والوحدة، إلى معنًى أو وحدة تتحدَّى هذه الدورات ودورة الحياة نفسها. مَن يستمر سينَعى، ليس فقط الآخر، بل السلالة التي لم تحدث في الواقع، وتكونت فقط في الذاكرة. الذاكرة هي كتاب حياتنا. صرت ابنًا لها، وصارت ابنة لي، بدون أن تكون أمًّا أو أكون أبًا، بدون التعقيدات النفسية والمتبادلة من تحت ترابيزة المشاعر لمسؤولية الأمومة والأبوة. لكل منَّا أمومة مقدسة، ويمكن أن لقاءنا كان يسيراً لهذا السبب، لم نتشبه ولم نطلب من الأمومة أكثر من الحب، وليس أن تكون قناعًا لرغبات أكثر كبتًا، لذا كانت أمومتها خالصة من الرغبات النفسية. لقد تفرعت وحدتنا وأحدثت انقساماتها الخاصة على شاطئ نيل حياتنا، ربما ما فعلناه أننا

أطلنا زمن وحدتنا، أو عطلنا الموت قليلاً عن الوصول إلينا، لقد راوغناه بألعاب الأطفال. في هذا الزمن الفائض كانت حياتنا تتألق. ربما مقدرتنا في أن نطيل من زمن الاشتعال قبل أن نخبو. كان ظهورها في المستشفى لساعة الزيارة بمثابة تلخيص لهذا الزمن الذي يشتعل ثم يخبو، تلخيص لدورة زمن أخرى أكبر، هي التي تتماس مع دورة حياتنا، وكانت لقاءات المستشفى إحدى نسخ زمن الاشتعال والخبو هذا.

لو كانت حياتي انتهت عند هذه النقطة، كنت سأشعر بالغَينَ ! ليس من النهاية المفاجئة، ولكن من تلك الدورةالسريعة غير المشبعة بعد أن بدأتْ حياتك تجد لها معنًى وطريقًا، أي إشباع مراوغ يَبني في مكان بينما مكان آخر يتداعى، يمنحك الإحساس بأنك تقف على سلم الخلود بينما عصاتك تتآكل من أسفل. استكمال أي دورة من دورات الوجود ناقص مهما حدث. أي تمركز في وحدة لن يشبع إلا أصحابها فقط، كما وظيفة العُقَد في النبات أن تخزن الغذاء. تظهر من جديد تلك الخريطة الأصلية للوجود قبل أن تتفرع المدن وتتنامى: المادة والروح، كأنقى جهاد إلهي زرعه الله في الإنسان، وكأصفى تناقض، منه خرجت المدن وتنامي العالم واندفع إلى الأمام. أفكر بعالم آخر يخرج من هذا الرحم الناقص والحياة الناقصة. بالنهاية، فسيلازمنا إحساس الجوعان للحياة مهما تقدم به العمر، جوع تاريخي لا يشبعه إلا مائدة من الموائد السماوية، التي تجلس فيها بالقرب من الله، وترى الحياة من عمق الخلود.

١٤

لا أعرف ما هي حدود هذه الحياة الجديدة التي مُنحت لي، لا أتمناها حياة كتلك الحيوات التي تخرج من كهف، وتبدأ في بناء نفسها ضد قوانين الكهف والخوف من العزلة، والخوف من الحرية أيضًا، هذا الخط الفاصل بين العزلة والحرية، تلك الحياة التي لن أتعلم فيها شيئًا، هذا الخفق المستمر للوجود دون أي انقطاعات أو محطات تحَوُّل. للأسف لا أشعر بخفق أجنحة هذه الحياة الناجية من الموت داخلي، ربما مفاجأة النجاة هي التي عقدت شعوري وجعلتني لا أشعر بقيمة هذه الهبة التي مُنحت لي، أو أن هذه الهبة تحتاج لزمن حتى أحس بوقعها في قلبي. ربما التعبير عن الامتنان لن يكون بالفرح، وإنما بمعاينة الميلاد الجديد، وأنت كبير، بعد أن فاتك أن تفرح بميلادك وأنت صغير، لأنك بكل المقاييس لم تكن مساويًا له في كل شيء، ولا تملك أي أداة من أدوات الخلق، كما تملك الآن، ولا تملك عينًا شفافة ترى بها المعجزة. أمَّا الآن فأنت لك سابقة في الميلاد، وهناك مشترك بينك وبين الميلاد الجديد، ألا وهو الاقتراب من نبع الحياة القديم. الموت مشترك في أي ميلاد جديد أو قديم. الفراغ الخالي من المساحة... الإزاحة... النفس التي لا تجد مركزًا... الجسد الذي بلا

ذاكرة، كلها صور الموت. ربما الفرح ليس هو الشعور المناسب للتعبير عمَّا أشعر به الآن. ربما الفرح شعور قاصر، أو النجاة من الموت والتنصل منه كلية وهمٌ. لقد حملت جزءًا من هذا العالم الآخر، وأصبح مخلوطًا بعالمي وبمشاعري، ومن الصعب أن أفرح في حضوره، لأن هناك ميتًا في البيت المجاور ! لقد زُرعت في داخلي تجربة جديدة أحاول أن أفهمها، إنها التجربة التي يمكنها أن تعقد لساني من هول ما رأيت ولا تعبر عنه اللغة، كونه صراعًا بين حيوانات الوجود الأولى في عصرها الحجري، أو الجليدي، قبل أن تُعرف اللغة. الاقتراب من نبع الموت، والانتظار في مجاله، والخوف منه، أو حتى كراهيته، كل هذا جعل جزءًا من ماديته ينتقل إليك، كالجينات الوراثية، جزءًا من تلك الراحة الأبدية والسكون الأبدي، وإحساس خط النهاية الذي نبدأ منه الرحلة من جديد. أصبح جزء من جسمي خاضعاً لهذه الصفقة الاستعمارية . يتشكل وجداننا على شاكلة من يستعمرنا . الموت أحد المستعمرين القدماء ، لا يدخل أحد في مستعمرته إلا وَيسِم نفسه بهروب أبدي، وينجرح جسده بتلك الأسلاك الشائكة التي تحوط مكانه، أو بتلك الرموز الجارحة الاستعلائية التي تتبادلها معه. أن تتآلف مع جبروت وظلم من كان السبب في إهانتك وخوفك، وتتمنى يومًا أن تمتلك نفوذه وقدرته على الفناء. التجربة هي التي تقودني الآن، وليس أنا من أشاهدها ، بل هي التي تشاهدني . حيوانات حيواتي الأولى تتفرج عليَّ . ترجع الأشياء لسابق عهدها . وعي يتحسس فكرة في الظلام . ((أوديب)) الوعي . للأسف إننا لا نكون حاضرين بكل وعينا أثناء تحولاتنا المهمة. ربما كل التحولات المهمة لها علاقة بتلك المنطقة الشفافة التي تقع بين الحياة والموت ، بين الظلام والنور، ولذا

ندخل أرض الموت ونحن مغيبون، مثل الصوفي وهو يدخل أرض الله ، مثل دخولنا أرض اللاوعي بالمخدرات. كل هذه التجارب تتصل باللاوعي ، وهو المكان الذي يعيش فيه الموت بشكله الإنساني وغير الضار، والذي لا يعني عندها الفناء . ربما أهمية التجارب تأتي من اقترابها من اللاوعي ، ليس فقط من أجل تحريره و استبدال الوعى به ، بل من أجل اكتشاف هذا الجسر الذي يصلنا به.

يشترك اللاوعي مع الموت ، داخل العقل، بوصفهما أُقنومَي الغياب. إننا نستحضر الغياب داخل حياتنا كما نستدعي الفراغ أو الصمت لنملأ به ما نعجز عن التعبير عنه. لا أعرف لماذا لم تتولد لديَّ طاقة مميزة من العيش على حافة الحياة والموت، أم أن هذا التناقض، بين الحياة والموت، غير موجود أصلاً . لذا العائد من أرض الموت يعرف أنها امتداد لأرض الحياة ، ولا يوجد جسر أو برزخ كما يقال! وأكثر شيء يعبرِّ عن هذا الانتقال هو الصمت، أو الاحتفاظ بهذا السر العادي والذي نقوله دائمًا، أن الموت امتداد للحياة بشكل ما ، وليس فناءً خالصًا، لأننا لن نكون موجودين لنعاين الموت – الفناء ، ولكن نكون موجودين ونحن نعاين الموت – الحياة . لم أَصِحْ بجسمي كله صيحة الخروج من مأزق أو فرح الاستيقاظ من كابوس ، كل هذا لم يحدث، لم يكن هناك أي انتصارات شخصية حققتها، لا يصح أن ينتصر أحد على الموت ، جاره الغائب والمنتظر عودته في أي لحظة ، وإنما نحن نعرفه كما تصنع الطيور أعشاشها بالقرب من البراكين . الموت يتعمق معناه عبر وجودنا وعبر تقاطعنا معه . أيضًا الموت لا ينتصر علينا ، وإنما يؤدي واجبه والدور المطلوب منه في الحياة . الموت كالعدالة

العمياء، أراه مثل وظيفة الفراغ في الحياة، إنها تنحت الجسم والوعي عبر حضور معنًى لهذا الفراغ. بحقٍّ نحن أولاد هذا الفراغ، أبناء هذا الصمت. ذاب فرحي بالنجاة سريعًا كحلوى غزل البنات، يبدو أن مواجهة الموت تسحب الفرح وتثقل الوعي بمواجهات جديدة، تفتح صندوقًا كان مغلقًا ومجهزًا فقط للتذكر ، ولا يتم فتحه إلا في لحظة الوداع والمغادرة للحياة، حيث لا يكون هناك وقت للأسى، أو تلك الهدية التي تتركها لمن يجلسون في صالة سينما الذاكرة وهم يتفرجون على فيلم حياتك . صندوق ساعة الصفر.

أفكر ماذا أفعل بسنواتي الجديدة المنزوعة من فم الأسد، هل هي منزوعة بحق، أم أن الأسد وجدها نيئة ولا تصلح للالتهام؟ دائمًا ما كنت أعمل حساب هذه السنوات المتبقية في قاع العمر، كتفل الشاي المر المخلوط بالسكر الذي لم يذب، وكيف سيكون أدائي وقتها. كنت أتخيلها امتدادًا طبيعياً ، وإن كان مختلفًا ، وتيرة أخرى كلحظة تصاعد مفاجئة في سيمفونية. لم أتخيلها أبدًا كفضلة قماش ملحومة بالعمر بعد أن كادت أن تنفصل عنه. ستصبح هذه الفضلة والخيوط التي تتخللها جزءًا من طريقة إحساسي بالحياة، لا أنتمي لها كلية، ولا يربطني بها سوى ثغرات وخياطات واضحة ! فى الماضى غالبًا ما كنت أتصورني أتحرك بأداء الشخص السكران الذي يخدِّر سجل هزائمه كي لا يستيقظ في هذه المرحلة المتقدمة من العمر. هذا النموذج قد تغير بعد أن تعثرت بحَجَرة الموت في الطريق وغيرت اتجاه سنواتي المتبقية وخطتها في تضييع الوقت واستنفاده في اللهو والنسيان. في العشرينيات نتلاعب بأعمارنا كأننا نملك رصيدًا لا ينفد، أو نستكثر سنواتنا فتكثر

الوعود بالموت حيّاً أو انتحارًا أوعزلة. نبني من حولنا النماذج التي سنتتبع خطاها حتى نصل . يسري في جسدنا شره رأسمالي تجاه الحصول سريعًا على ثروة الموت، بدون أن نتعب في جمعها. في تلك المرحلة نكذب تلك الكذبة البيضاء، على أنفسنا وعلى الآخرين، بأننا لا نتمنى سوى أن نعيش للخمسين، عندها تكون الخمسون بعيدة جدًّا، أو يكون رصيدنا الخيالي من السنين يغطي هذا الدين الصغير. للعمر مؤشر متذبذب، وفي كل وقت نتوجه له، بزمننا الداخلي، وليس بحقيقته، مثل هؤلاء الذين يواجهون تقدم العمر بتذكر الطفولة، والطفولة فقط، كأنه يعيد دورة الزمن ويمسكها من أول الخيط. أشعر برغبة فى قذف حياتي بقوة في مدى حديقة السنوات المتبقية، أروي تلك الأطراف اليابسة والحشائش التى تقف وراء العمر. يبدو أن الأهم هو إيجاد صيغة للحياة وتصريفها بعد أن تكون الطرق قد تعددت للحياة وللموت. لا أؤمن بطريقة معينة لصياغة الحياة أو الموت ، هناك مفاجآت دائمة في الطريق، وأحجار تغير من خطط السير . ربما تكون الخطة الجديدة هي التوافق مع هذه العشوائية، ربما نخرج يومًا ولا نعود للبيت. لن يحاسبنا أحد، بعد الآن، على فشلنا. جزء من نفسي لم يعد ملكًا لي، بكثرة الدماء الغريبة التي دخلت جسمي ، بالإضافة لهذا الجزء من مادية الموت، وخيالاته، والذي قايضته من أجل بقائي. كانت هناك ساحة صراع مفتوحة بداخلي، لست اللاعب الوحيد فيها. هذه الحياة، حياتي ، التى تفرقت على قبائل الأصدقاء والمتبرعين الغرباء، جُزِّئت وسُلبت منها وحدتها و توحدها. أشعر بعضو جديد فى جسمي، ربما ((الآخر)) هو العضو الجديد، والذي لا يتكون إلا بتبادل مادي بين اثنين أو أكثر، وليس فقط بالفهم والتفهم، أو بتبادل الأماكن

والمشاعر. كلها مقايضات مجازية. هذا ((الآخر)) ليس له شكل نهائي ودائم، يتجدد العهد معه في كل موقعة حياتية، حتى ينكشف وجه من أوجهه العديدة والمتعددة. للحياة ((آخر)) ، كما للموت ((آخر)) ، كما للحب ((آخر)). ((الآخرية)) تأخذ شكل صاحبها، لذا هي معرفة ومجهود ذاتيان. هذا السائل الأحمر الذي تحول إلى أخلاق وعهد ، كأني أريد أن أقف أمام كل من تبرع لي به وكان سببًا في نجاتي، منتظرًا معه لوقت لأرى نهاية هذا الخيط الغائب. أفكر فى هذه الدماء التى دخلت جسمي، أتذكر ذلك العضو الجديد الذي يعمل بذاكرة حياته السابقة ، ويفرض على الجسم الجديد طرائقه السابقة في الحياة . هذه هي مقايضة النجاة . قمت من الموت ، لم يسبقني عذاب أو تتلوني ديانة. قيامتي كانت من أجل تجديد عهدى مع الحياة ، ومع نفسي، ومع الآخرين. أصبح للآخرين نصيب مادي في حياتي. نضج الموت عن الماضي، لم يعد فقط من أجل تأسيس أشكال جماعية للحب، أو للإيمان، بل من أجل تشارك في المصير، لاختراع صور جديدة للحب. لا حدَّ لتضحياتنا. . . لا حدَّ لإنسانيتنا.

١٥

لم أكن أصدق أن الشخص الذي يخرج هذا العدد من الخراطيم من بطنه ويضعون له قناع التنفس طوال الوقت، و المقلوب على ظهره كحشرة ((كافكا))، هو أنا. لستُ من لا يقدر على زحزحة جسمه ولو سنتيمترات، لستُ من يتدحرج ككرة ثلج على سفح بلا نهاية . كان هناك أحد غيري ينوب عني في تحمل الألم، ويسبقني بخطوة ليمنع عني شبح الموت الذي يطاردني . أما أنا فقد كنت سليمًا معافىً، أنتظر شفاء هذا الجسد الذي يرقد بجواري على السرير. كنت أتعالى دائمًا على هذا الجسد المطروح بجواري، وطاقة الموت التي تصدر منه كنت أستقبلها على سطح روحي لكي أعيش، ثم أعكسها كما يعكس القمر أشعة الشمس . كنت أستمد حياتى من طاقة الموت ، من هذه العلاقة مع شمس العدم. كان هناك قمر يضيء هذا الليل الكوني الطويل وتلك المجرة التي أسبح فيها بلا جاذبية. طاقة النهايات يمكن استخدامها أيضًا لإنارة هذه الغرفة المظلمة ، التي هي جسدي . أقنعت نفسي بهذا حتى تم الشفاء لهذا الجسد الذي كنت أرافقه. لم أكن أريد أن أعترف بالهزيمة ، تعاليت عليها، وكان في هذا التعالى النجاة. كنا اثنين راقدَين على السرير . فى كلى لحظاتي المفصلية يعود لي توأمي التائه. هذا

التوأم اقتسم التي تظلل الجسدين. كان الموت يقف بيني وبين توأمي كقشرة البصل . هذا الازدواج أزاغ بصره عني. هذه الثنائية سمحت بأن أهرِّب جسدي وروحي من باب خلفي ، بينما الموت والجنون ساهران على حراسة قناع .

تكررت هذه الصدفة على الأقل ثلاث مرات . أكون مستغرقًا وغائصًا في السرير ، وأفكاري تحاول أن تجتاز حدود المرض وأسلاكه الشائكة ، وإذ بيد تولد من هذا الضوء الذي تثيره انقباضات جسمي وتقلبه على تراب الحياة ؛ تأتي تلك اليد وتنسل بين ظهري ووسادة السرير، وتدفعني للأمام، هذه هي رسالتها المختصرة، أن تدفعني للأمام، كمن يساعد آخر على النهوض . حركة رمزية تمامًا كنت أتلقاها بامتنان . كنت أصدق هذه اليد ، وكأنها جاءت من المستقبل، من الأرض التي سترسو عليها السفينة ، شاطئ النجاة لرحلة التيه الطويلة. كان يمكنني أن أتقبل معجزة أكبر من هذا بدون أن تثير فيَّ أي استغراب أو اندهاش، فقد كنت أعيش في حيز المعجزات، حتى استمراري في الحياة نفسه أصبح معجزة. كانت هذه اليد، وتكرار ظهورها، كالوحي، تتعدى في تأثيرها حدود الشبكة النفسية التي نسجها رسول الموت من حولي. لم أُلِحَّ في استدعاء هذه اليد ، فَلْتأتِ كيفما يحلو لها. كان يجب أن أتعامل معها كشيء نادر، و ثمين، ولا يمكن تكراره بسهولة. المرات الثلاث التى زارتنى فيها، على مساحة زمان كبير بحساب الموت ، كانت كافية لكي أصدقها ، وأصدق أن مرضي قد فتح ثقبًا أو طريقًا تجاه شيء أكبر وأعمق في هذا الكون ، بل وأصبحتُ قريبًا منه، ومِن صاحب هذه اليد الممدودة .

الإسكندرية - الجمعة ١٩ ديسمبر ٢٠١٤

عن علاء خالد

يُولد في الإسكندرية عام ١٩٦٠. يتخرج في قسم الكيمياء الحيوية بكلية العلوم عام ١٩٨٢، ويشغل وظيفة كيميائى حتى عام ١٩٨٢ حيث يُقرر أن يترك العمل ويتفرغ للكتابة. يصدر ديوانه الأول، ((الجسد عالق بمشيئة حبر)) ، عام ١٩٩٠ . و بعد سنتين يلحقه بديوان ((وتهب طقس الجسد إلى الرمز)) . يعكس الديوانان مجموعة أفكار جذرية تخص نقد المجتمع والأبوة والعائلة والحب، وتأكيدًا لفكرة ((الفردية)) في مواجهة ((الجماعية)). في ديوان ((حياة مبيتة)) ، الصادر عام ١٩٩٥، تتحول بوصلة الكتابة من هذه الحالة النقدية إلى تفقد أشياء الحياة التي لم تهزم داخل الذاكرة والممارسات الجماعية، لتكون هي عماد الحياة المقبلة. وفي العام نفسه يصدر أيضًا كتابًا نثريًّا بعنوان ((خطوط الضعف)) ، عن رحلة إلى واحة سيوة ، يحاول أن يمزج فيه بين سيرته الخاصة وسيرة الواحة، لاكتشاف أماكن الضعف المتبادلة ، سواء في جسم الواحة أو في ذاكرة الكاتب .

في العام نفسه أيضًا يتزوج من الفنانة والمصورة سلوى رشاد ، بعد صداقة دامت لخمس سنوات . بعدها تبدأ مرحلة جديدة في حياته ،

ستكون ((الرحلة)) أحد أساساتها. يتوقف عن الكتابة حتى عام ٢٠٠٢ عند ما يصدر كتاب ((المسافر)) ، بمشاركة سلوى رشاد ، عن مشروع مشترك مع كُتاب و مصورين فرنسيين ، دارت وقائعه خلال عام بين مارسيليا والإسكندرية، وكتاب ((طرف غائب))، الذي يجمع في شكل أدبي بين القصة والمقال المطول والحكاية.

يصدر ديوان))كرسيان متقابلان ((في عام ٢٠٠٦، ثم ديوان ((تصبحين على خير)) فى عام ٢٠٠٧، وهو مرثية طويلة من قصيدة واحدة مجزأة إلى فقرات تحكي العلاقة بالأم الغائبة ومحاولة استحضارها والحوار معها ، حتى يأتي المساء المجازي الذي يودع فيه أمه بتلك العبارة التقليدية: ((تصبحين على خير)) ، متمنيًا لها نومًا هانئًا في العالم الآخر .

يصدر عام ٢٠٠٩ روايته الوحيدة ، ((ألم خفيف كريشة طائر تتنقل بهدوء من مكان لآخر)) ، وفيها يحكي عن تاريخ عائلة سكندرية ، متتبعًا أثر التحول في بنية هذه العائلة والمدينة، والخيط الذي ما زال يسري داخل نخاع هذه الأجيال والمدينة ولم يقطعه الزمن.

في عام ٢٠١٢ يصدر كتابه ((وجوه سكندرية)) ، وفيه يحكى عن سيرة مدينة الإسكندرية عبر الحديث عن وجوه وأماكن ورموز للاسكندرية ، كلها تبرز هذا الجانب المخفى من لاشعور المدينة المنفلت والعاطفي ، والذي تمثله هذه الوجوه. في العام نفسه يصدر ديواناً شعريًّا جديدًا بعنوان ((تحت شمسى ذاكرة أخرى)) عن رحلته فى كل من ألمانيا، فى بيت ((هاينريش بول)) في قرية ((لانجنيرويش

)) حيث أقام لمدة أربعة أشهر ، ولوس أنجلوس حيث أقام لمدة ثلاثة أشهر .

في عام ٢٠١٤ يصدر ديوانه ((لمرة واحدة)) ، وفيه يقيم علاقة مجازية مع الموت ، استباقًا لحدوثه، والصراع معه، والتلويح والصراخ في وجهه، لاكتساب صداقته عند حضوره الفعلي.

يصدر بداية عام ١٩٩٩ مع زوجته ، والكاتب مهاب نصر، والفنان التشكيلى محمد أبو النجا، مجلة ((أمكنة))، وهي كتاب غير دوري يعنى بثقافة المكان، وبالرحلة ، وبملء الفجوة بين الثقافة والشارع ، عبر الحوارات والمقالات والصور الفوتوغرافية، واعتماد ((الحكاية)) كأحد الأشكال الأدبية ، وهي لم تكن مدرجة في الثقافة الرفيعة في ذلك الوقت . كان أيضًا للمجلة طموح أنثروبولوجي للبحث في زوايا وظواهر وثقافة المجتمع المهمشة والبعيدة عن المركز . وقد صدر من المجلة حتى الآن أحد عشر عددًا، كل منها يدور حول فكرة معينة، آخرها العدد الصادر فى نهاية عام ٢٠١٤ حول مسارات الثورة المصرية.